دار الفلوتية

العودة إلى المغرب الأقصى

بين الصحراء والأرض الخضراء

بقلم
محمد بن ناصر العبودي

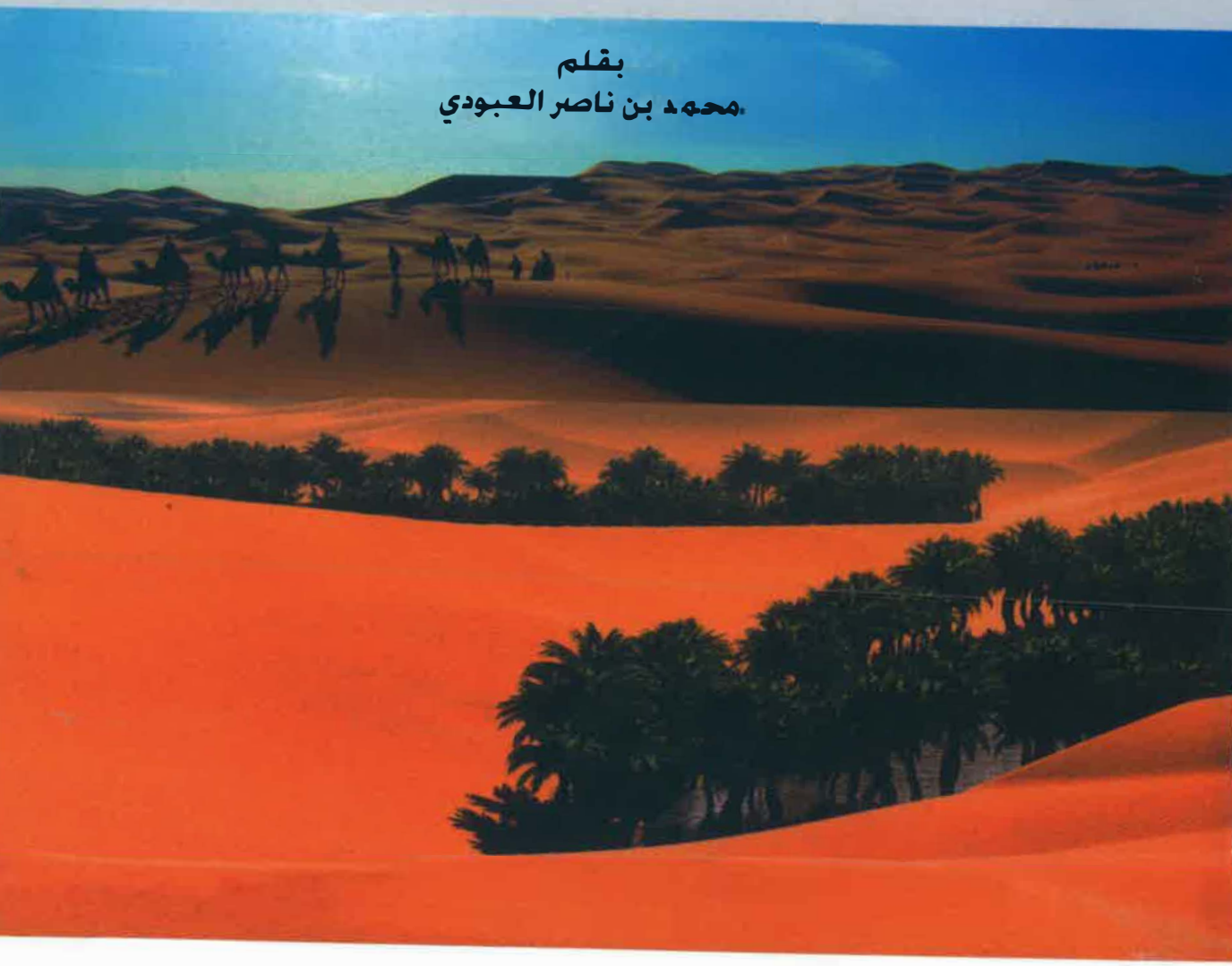

بسم الله الرحمن الرحيم

العودة إلى المغرب الأقصى

بين الصحراء والأرض الخضراء

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

دار الثلوثية للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

1437 هـ / 2016 م

المستودع الدعوي الرقمي
Osoul Center For Studies

https://dawa.center

ⓒ دار الثلوثية للنشر ، ١٤٣٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر
العبودي ، محمد بن ناصر عبدالرحمن
العودة الى الغرب الأقصى بين الصحراء والأرض الخضراء. /
محمد بن ناصر بن عبدالرحمن العبودي ـ الرياض، ١٤٣٧ هـ
ردمك: ٦-٤-٩٠٧٥٦-٦٠٣-٩٧٨
١- المغرب - وصف ورحلات
العنوان
ديوي ٩١٦،٤٠٤ ١٤٣٧/٢٣٢٢

ردمك: ٦-٤-٩٠٧٥٦-٦٠٣-٩٧٨ رقم الايداع: ١٤٣٧/٢٣٢٢

تمهيد:

كنت في زيارة رسمية لجمهورية (شاد) قابلت فيها رئيس الجمهورية إدريس دبي، ووقعت فيها اتفاقاً حول التعاون ما بين رابطة العالم الإسلامي والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية في (شاد)، وكنت أثناء زيارتي إليها أسير وفق برنامج مرسوم.

ومن (شاد) توجهت إلى برازافيل عاصمة جمهورية الكنقو حيث زرتها زيارة رسمية قابلت خلالها رئيس الجمهورية ووزيري الداخلية والخارجية، ووقعت مع حكومتها اتفاقية منح الحصانة الدبلوماسية لمكتب رابطة العالم الإسلامي الذي سيفتح هناك.

ومن الكنغو توجهت إلى دكار عاصمة السنغال، حيث اجتمعت بمدير المكتب الإقليمي لرابطة العالم الإسلامي في غرب إفريقية السفير عبدالوهاب الدكوري، واطلعت على البيت الذي أهدته حكومة السنغال إلى رابطة العالم الإسلامي ليكون منزلاً دائماً لمدير مكتب الرابطة هناك.

وكانت عطلة عيد الأضحى قد دخلت في بلادنا والعودة إلى مكة المكرمة لمن لا يعتزم الحج هي في هذا الوقت عودة للزحام وعدم العمل، لذلك سافرت من السنغال إلى (جزر الكناريا) التي يسميها أسلافنا العرب (جزائر الخالدات) أو جزائر السعادة، فقضيت فيها بعض أيام عطلة العيد، توجهت بعد ذلك إلى الدار البيضاء لا لشيء إلا لكوني لم أجد طريقاً من جزر الخالدات (الكناريا) إلى الصحراء الغربية، مع أنها أقرب اليابسة إلى جزءرة (قران كناريا) التي فيها مدينة (لاس ملماس) عامصة الجزر.

فبقيت في الدار البيضاء نحو ١٨ ساعة توجهت بعدها إلى الصحراء الكبرى، وقد وجدتني كتبت في مذكراتي ما يلي عن هذه الزيارة:.

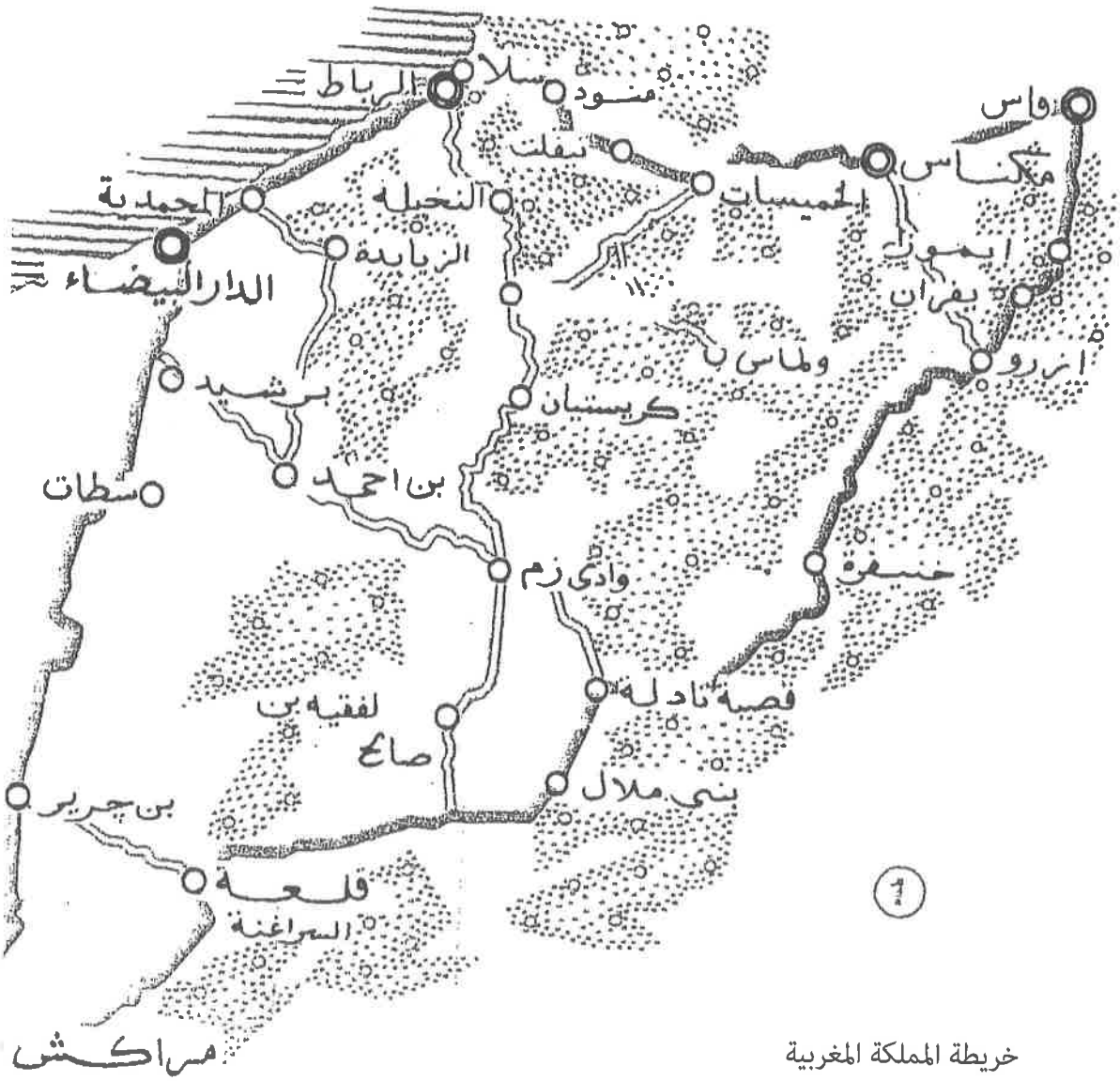

خريطة المملكة المغربية

الفصل الأول

الصحراء المغربية

يوم الخميس ١٤١٣/١٢/١٣هـ- ١٩٩٣/٦/٣م:

من الدار البيضاء إلى العيون:

نعمت هذا اليوم بصباح عربي مغربي مبتسم لغير طمع، وهي عادة عرفناها من إخواننا المغاربة رعاهم الله.

وكنت نزلت في فندق الموحدين الواقع في (نهج مولاي الحسن الأول) من الدار البيضاء وهو فندق من الدرجة الأولى الدنيا فهو ذو أربع نجوم ومع ذلك لم تزد أجرته على ٣١٥ درهماً في الليلة للغرفة الواحدة الجيدة فيه وذلك يساوي نحو ٣٨ دولاراً أمريكياً، وقد قارنت ذلك في ذهني بأجرة فندق (امبامو بالاس) في برزافيل الذي نزلت فيه قبل أيام وهي ٣٦٢ دولاراً أمريكياً لليلة الواحدة، لأنني في جناح كبير، مع أنني وحدي ولكنني كنت أستقبل أعداداً كبيرة من المسلمين أهل الكنغو وأهل زايير المجاورة الذين جاوءا إلى زيارتي قاطعين نهر الكنغو الذي يفصل بين عاصمتي البلدين.

وذكرت أيضاً الفرق بين وجبة الفطور في فندق (امبامو بلاس) وفندق الموحدين، إذْ هي في الأول تساوي ١١ دولاراً أمريكياً وفي الثاني أقل قليلاً من ٣ دولارات، مع أنني هنا في المغرب أشعر في واقع الأمر كأنما أنا في بلدي سوا ءمن حيث اللغة أو الطعام، وحتى اللون، ولذلك كله أثر على الإنسان عظيم، وإن كانت هذه الأمور الثلاثة لا تجعل الإنسان مرتاحاً إذا لم يضف إليها الشعور بالراحة النفسية، فمثلاً يوجد في الهند شيء من هذه الثلاثة حيث يقرب الطعام هناك من ذوقنا لولا ما فيه من البهار الحار ومن الدسم الثقيل، واللغة الشائعة هي الإنكليزية التي أصبحت لغة ثانية أجنبية لنا، واللون هو لوننا نحن العرب تقريباً، ومع ذلك يشعر المرء بالغربة إلا إذا كان مثلي تحف به دائماً في الهند طائفة عزيزة من إخواننا المسلمين هناك جزاهم الله خيراً.

ركبت سيارة أجرة كبيرة إلى مطار الدار البيضاء من المدينة وهم لا يسمحون بالذهاب إلى ا لمطار إلا على مثل هذه السيارة الكبيرة ولو كان الراكب مثلي وحيداً يكفيه نصف سيارة فضلاً عن سيارة صغيرة، والمراد بالكبيرة هنا سيارة أجرة من سيارات الركوب التي أكثرها من صنع مرسيدس وليس سيارة شحن مثلاً.

ودفعت الأجرة إلى المطار مائتي درهم كما كنت دفعت البارحة أجرة القدوم من المطار إلى المدينة مائتي درهم، كل ذلك من أجل أن أنام الليلة في فندق في المدينة لأنه لا يوجد فندق في المطار، ولا ما قرب منه، وإلا لكنت نمت هناك لأنه ليست لدي حاجة أو رغبة في دخول مدينة الدار البيضاء لعدة ساعات من الليل.

وقد بلغت أجرة سيارات الأجرة التي دفعتها في الذهاب والإياب إلى المطار أكثر من أجرة الغرفة في فندق الموحدين ذي النجوم الأربع.

وفي الساعة التاسعة صباحاً كنا نركب من مبنى مطار الدار البيضاء حافلة واسعة جميلة ونذهب إلى الطائرة الصغيرة ذات المحركين المروحيين التي من أجل صغرها وقفت كالمنبوذة من الطائرات الكبيرة في ركن من ساحات المطار، وتتسع هذه الطائرة لـ٤٤ راكباً، ومع ذلك لم تمتليء مقاعدها، بل بقي نحو ثلثها فارغاً ونصف ركابها أوروبيون.

نهضت الطائرة بعد أن زمجر محركاها بغضب، وكأنها كانت قبل ذلك قد ربطت إلى الأرض برباط إذْ حتى طيرانها لم يكن سريعاً مثلما أن نهوضها كان متثاقلاً.

وقد ذكرني صوت محركيها وهما يزمجران بأوقات بعيدة في بلادنا نسيناها الآن عندما كنا نستعمل مثل هذه الطائرة المروحية على خطوطنا الجوية قبل اختراع الطائرات النفاثة.

كان إقلاع الطائرة من مطار الدار البيضاء في التاسعة والثلث صباحاً، قاصدة مطار العيون: عيون الساقية الحمراء، عاصمة الصحراء المغربية الكبرى، وكبرها هو بالنسبة لما يملكه المغرب من الصحارى وليس لما في الكون منها لأنها إذ قورنت بالصحارى العالمية فإنها لا تبدو كبرى، وإن كانت تظل كبيرة، بل هي أكبر من عدة صحارى في بلاد مذكورة مشهورة مثل صحراء كلاهاري التي في غرب جنوب القارة الإفريقية وتتقاسمها دولتان من دولها هما بتسوانا وناميبيا، وقد سبق لكاتب هذه السطور أن زار هاتين الدولتين وذكرهما في كتابين من كتبه أولاهما وهي بتسوانا ذكرت في كتاب: (صلة الحديث عن إفريقية) والثانية وهي ناميبيا في كتاب: (إلى أقصى الجنوب الإفريقي) والأول طبع منذ عشر سنوات والثاني طبع بعد ذلك.

كان طيران هذه الطائرة الصغيرة مريحاً هادئاً ربما كان أكثر هدؤاً من طيران الطائرات النفاثة إلا ما كان من صوت محركيها فإنه كان غير مريح.

وفي العاشرة وقد أخذت الطائرة تطير على حافة الأرض اليابسة المغربية مما يلي المحيط سعى المضيفان وهما رجل وامرأة من الإخوة المغاربة الكرام، والوقت ليس بوقت وجبة من الوجبات الثلاث، ولكن بعض الركاب وأنا منهم لم يتمكنوا من تناول طعام الفطور، فقدموا في هذه الطائرة الصغيرة وفي هذا الوقت وجبة طعام جيدة شبيهه بوجبة الغداء إذْ كان فيها جبن أصفر ولحم بقري ولحم من ديك رومي وخبز وزبدة وسلطة مخلوطة ثم الشاي أو القهوة.

وهذا السخاء عرفناه من الطائرات المغربية، وقبل ذلك عرفناه من الإخوة المغاربة في

منازلهم وفي قراهم، فهم فيما عرفته من أمرهم معرفة اليقين أكرم العرب المعاصرين أجمعين.

أما المناظر تحت الطائرة فإنها كانت عند الإقلاع من مطار الدار البيضاء مناظر الأراضي الزراعية المزروعة بالحقول التي حصد بعضها وبقيت بقايا القصب فيها صفرا، يتخيل رأئيها من البعد أنها خالية من الزراعة مع أنها لم تكن خالية قبل فترة قريبة، وحقول أخرى خضر.

ثم وصلنا إلى منطقة جبلية عالية هي جزء من جبال الأطلس الشهيرة، وقد عجز سحاب كان موجوداً حولها عن الوصول إلى قممها فاكتفى بأن جلل أكتافها بأردان بيض، تشبه أردان البرانس التي تكسو المغاربة المحافظين على التقاليد.

والبرانس جمع برنس وهو تلك الجبة التي تكون مغلقة من الأمام مثل إغلاقها من الخلف، وفي أعلاها غطاء الرأس متصل بها يستر به الرأس عند الحاجة، ويبقى متدلياً خلف الرقبة إذا لم يحتج إليه.

ويؤثر عن الرئيس التونسي الراحل عن السلطة وهو على طريق الرحيل عن الدنيا (أبو رقيبة) أنه سئل عن تعريف الرجل المغربي من هو؟ فأجاب: المغربي هو من لبس البرنس، و أكل الكسكس، و(الكسكس): أكلته ولم أصبح مغربياً، إلا في هواي وعاطفتي وإن كان الذي جعلني كذلك غير (الكسكس)، وأما البرنس فان بعض إخواننا من كبار القوم ورجال العلم و خطباء المساجد في بلاد السودان الغربي في غرب إفريقية ما زالوا يلبسون البرنس في المناسبات المهمة ومنها إمامة الناس لصلاة الجمعة، ولم يجعلهم ذلك مغاربة لأن لون البرنس وإن كان أبيض لا يستطيع أن يستر اللون السوداني الصافي في سواده.

كانت المضيفة وزعت علينا عدداً من صحف الصباح المغربية وهي عديدة إلا أنها كلها لا تعتبر من الصحف الكبرى وإن كانت فيها صحف كبيرة كالعلم.

وقد قطعت بعض الوقت في مطالعتها بعد الفراغ من تناول الطعام الذي لا أدري أأسميه غداء كما كنا نقول في بلادنا للطعام الذي يقدم في مثل هذا الوقت قبل أربعين سنة، أم نسميه فطوراً وهذا الوقت هو وقت الفطور بالنسبة لبعض بني قومنا الذين يسهرون حتى الفجر.

وقد وجدت مجلة الخطوط المغربية في جيب المقعد فقرأت فيها أن المسافة ما بين الدار البيضاء ومدينة العيون هي (٨٨٠) كيلومتراً للطائرة.

وقد وجدت فرصة في طول زمن الرحلة ورتابة الطيران والمناظر فكتبت فترة من الوقت ونحن في اتجاهنا إلى الصحراء نفارق الأرض الخضراء ونصل إلى الأرض الغبراء في تدرج مستمر في العين، وإن كان الطيران لا يزال مستمراً على وتيرة واحدة.

وذلك إلى أن وصلنا إلى أرض صحراوية حقيقية فيها رمل كثير وإن لم يكن كله كثباناً رملية مرتكمة، فأخذت الطائرة تخفف من غلوائها، وأخذ محركاها يخففان من زمجرتهما وصارت تتدلى وهي تتدنى إلى الأرض فوق صحراء ذات سباخ ورمال، ولكنها لا تخلو من أشجار صحراوية قصيرة كثيرة من تلك الأشجار التي لا ترتفع عن الأرض كثيراً ولا يكون لونها أخضر نضراً.

ومن أظهر علامات هذه الصحراء الوديان والشعاب الجافة التي هي مجاري السيول إذا سالت.

ومن الغريب في بادئ التفكير أن هذه الصحراء القاحلة الماحلة واقعة على ساحل هذا البحر المحيط الأعظم الذي يرتفع منه وتندفع إلى الجو أبخرة مائية كثيفة ولكنها تتبخر فوق رمال الصحراء أو لنقل إنها تضيع في جوائها وإن ذلك هو سبب جفاف هوائها، وقلة مائها، والقياس أن تتكاثف تلك الأبخرة وتنعقد على هيئة سحب ممطرة.

في مطار العيون:

عند الاقتراب من المطار اتضحت رؤية الأرض فتبين أن الأشجار الصحراوية فيها من نوع الرمث وشجر الحمض الذي لا يرتفع كثيراً عن الأرض إن لم يكن هو ذلك الشجر بعينه، ولم أر فيها أشجاراً كبيرة من أشجار الطلح ونحوه التي كنت رأيتها قبل أيام في أرض (شاد).

هبطت الطائرة في مطار العيون في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد طيران استمر ساعتين وربعاً.

وقد أعلنت المضيفة أن الساعة مؤافقة لتوقيت باقي المغرب الذي هو مطابق لتوقيت قرينتش، وأن درجة الحرارة هي (٢٣) درجة مئوية، وقد فوجئت بذلك لأن هذه الدرجة وهي ٢٣ هي درجة الحرارة الكبرى المعتادة الآن في البلدان الأوروبية الجنوبية وفي شمال المغرب، وكنت أظن أنها تكون في هذه المدينة الصحراوية الآن ما لا يقل عن ٣٥ درجة، لأنها تكون في بلادنا على البحر الأحمر مع الفرق بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي- لا تقل عن ذلك في مثل هذا الوقت من السنة.

ورأيت ما حول المدارج جافاً يابساً ليس فيه من العشب شيء لا من الرطب ولا من اليابس، والعادة في مثل هذه المطارات المحمية من الحيوان أن تبقى بقايا العشب في الأرض ولو كانت يابسة، إذا كانت البلاد تشهد فصلاً مطيراً في بعض فصول السنة، ولكن الأمر ليس كذلك في هذه المنطقة.

ومع ذلك ذكر لي أهلها رقماً بعد أنها قد شهدت العام الماضي جدباً زائداً عن المعتاد.

ورأيت مدارج المطار طويلة ربما تصلح لنزول طائرات أكبر من طائرتنا هذه ولكنني لم أر فيه شيئاً منها.

وعند مدخل المبنى الخارجي للمطار لوحة ضخمة بالعربية وحدها لفظها (العيون، الحسن الأول)، وهي لا تزال موضوعة على الأرض ربما لكي يرفعوها فيما بعد.

وقد قرأت بعد ذلك في قاعة المطار الداخلية لوحة تتعلق بهذا وهي أيضاً مكتوبة بالعربية وحدها: (بسم الله الرحمن الرحيم، تخليداً لذكرى عيد العرش المجيد دشّن صاحب الجلالة موحد الوطن وقائد مسيرته الخضراء، أمير المؤمنين الملك الحسن الثاني، أدام الله وجوده ونصر رايته، مطار مدينة العيون، وسماه تفاؤلاً باسم جده المبارك الميمون صاحب الجلالة السلطان الحسن الأول، جمادى الثانية ١٤٠٥هـ- مارس ١٩٨٥م).

وقد رأيت في انتظار الطائرة جمعاً من الضباط والموظفين المدنيين،وكانوا في مكتب للجوازات يطلبون من كل قادم أن يبرز هويته أو جوازه، فرأيت الأوروبيين يبرزون بطاقات معهم فيتركونهم يدخلون بسرعة، وخيل إلي أن أولئك الأوروبيين قد يكونون من موظفي الأمم المتحدة التي لها وجود واضح هنا.

أما أنا فإن الضابط قد توقف عند جوازي وأخذ يكتب منه اسمي كاملاً ووظيفتي وعمري، وسألني عن الغرض الذي حضرت من أجله إلى هنا أهو مهمة أم سياحة؟ فقلت: إنه سياحة وقد أبطأ وهو يكتب من الجواز كما يفعل القادم إلى دولة أجنبية، بل إن الضابط الذي ختم جوازي عند الدخول في مطار الدار البيضاء قادماً من جزر (الكناريا) لم يستغرق عمله إلا أقل مما استغرقه هذا الضابط.

وقد قدرت السبب في عملهم هذا وهو كون المنطقة مستهدفة بالتخريب من قبل عصابات البوليسارو الصحراوية التي تنكر على المغرب استيلاءه على الصحراء، ولذلك كان للتدقيق في الجوازات معنى.

كنت في قاعة الوصول الداخلية انتظر حقيبتي عند سير كهربائي متحرك حديث مثل سائر الأجهزة في المطار، وإذا بضابط الجوازات ياتي إلي ويسألني عن الفندق الذي سأقيم فيه في العيون، فقلت له: إنني لا أعرف الآن وقد عزمت على أن أسأل من ألقاه فيما بعد عن الفندق المناسب، فقال: لدينا فندقان جيدان هما (برادور) و(المسيرة الخضراء) فسألته عن الأحسن منهما؟ فقال (برادور).

وعندما انصرف عني لحقت به وبادرت بالسؤال عن الوصول إلى الفندق أيكون بسيارة الأجرة (التاكسي) أو الحافلة فقال بالتكسي، فسألته عن مقدار الأجرة وهذا أمر كنت ولا أزال أفعله عندما أصل إلى بلد جديد لئلا يغبنني سائق سيارة الأجرة، فقال: أربعة دراهم! فبدا لي أنني لم أفهم كلامه مع أنه يتكلم بوضوح لأن الدراهم الأربعة هذه تساوي أقل من نصف دولار أمريكي أي حوالي ريال ونصف من ريالاتنا السعودية.

وأراد ضابط للجمرك أن يعترضني فأريته جوازي فلما رآه (دبلوماسياً) سمح لي بمواصلة السير دون تفتيش، وقد فهمت أنهم يفتشون الامتعة حرصاً على الأمن، وليس من أجل الجمرك، لأن الرحلة داخلية.

لم أجد سيارة أجرة في الموقف عندما خرجت من المبنى فسألت رجلاً هناك فقال: ستأتي، ورايت جماعة مثلي ينتظرون وفيهم بعض من جاءوا معي في الطائرة إلا أن بعضهم جاءت إليهم سيارات خاصة وأخذتهم.

مع أنني لو كنت أخبرت أصدقائي في الرباط والدار البيضاء لكانوا هيأوا لي من يستقبلني هنا، بل لو كنت أخبرت السفارة المغربية في جدة لكانت الحكومة المغربية عملت لي برنامجاً رسمياً ولكنني أحب (الدروشة) في الرحلات وبخاصة إذا كانت قد أعقبت رحلة رسمية مقيدة بالبرنامج كما هو الحال بالنسبة إلى رحلتي هذه.

وانتظرت بعض الوقت حتى جاء (التاكسي) سيارة قديمة مهلهلة فيها مع السائق ثلاثة ركاب، وقد نزل السائق وحمل حقيبتي الكبيرة خلف سيارته وركبت مع الراكبين في هذه السيارة المهلهلة، وأول ما رأيته أن مقبض باب السيارة من الداخل قد سقط فاستعاض السائق عنه بحبل رث يمسك به من يريد أن يغلق الباب من الداخل، وأما من يريد أن يفتحه فإنه لابد له من أن يخرج يده من السيارة ويفتحه من الخارج أو يفتحه له غيره.

وتبين لي بعد ذلك أن هذه السيارة ليست بدعاً من سيارات الأجرة الأخرى فكلها بدون استثناء ليس لأبوابها مقابض سليمة من الداخل، وكلها ليس لها من الداخل أيدٍ لرفع زجاجها.

وتبين أن سيارات الأجرة ومنها هذه التي ركبت فيها إنما تنقل ركاباً مجتمعين: بمعنى أنه لا يركب السيارة راكب وحده، ولم يتعودوا على ذلك.

في مدينة العيون:

أنزلني السائق عند باب فندق برادور وطلب أجرته خمسة دراهم مقابل حملي مع حقيبتي والجميع يساوي ريالين سعوديين أو أكثر قليلاً من نصف دولار أمريكي، وسار ليوصل من بقي معه من الركاب في سيارته.

وقد تبين أن المطار قريب جداً من المدينة، بل هو متصل بها لولا أن المدينة ذاتها هي منثورة المنازل، متباعدة المحلات، فالانتقال من حارة إلى حارة فيها هومثل الانتقال منها إلى المطار مع أنه لا توجد مساحات من الفراغ بين حاراتها و أحيائها، وإنما أبنيتها الأساسية هي بيوت من طابق واحد تكون فيها أفنية تزيد من مساحة البيت.

أول ما أردت الدخول إلى فندق (برادور) استوقفني ضابط بكامل لباسه كان واقفاً على بابه الخارجي وسألني عما أريد في الفندق، وقد أنسيت الحالة الخاصة التي عليها المدينة من ناحية الأمن، فلم أجبه واندفعت لأدخل، فتلطف بي وهو يبتسم، وليس من عادة ضابط الشرطة الابتسام في هذه المواضع، ولكن ذلك أثر في نفسي، فقلت له: يا أخي، أريد أن أستأجر غرفة فيه، وقد لاحظت أن في الفندق لافتة مكتوبة في لوح مستند على رصيف المدخل مكتوب عليها كلمة واحدة بالإنكليزية (محجوز) فقلت في نفسي: لماذ يضعون هذه اللافتة هنا والعادة أن توضع على موائد الطعام ونحوها.

وما يزال الضابط المغربي يحاول منعي من الدخول للفندق من دون أن يستعمل الشدة، ولم أبال به، فدخلت من دون موافقته، فوجدت في مكتب الاستقبال فتاة مغربية جميلة من هؤلاء المغربيات اللاَتي جمعن بين التهذيب والتذهيب، أو قل إنهن اجتمع لهن الجمال، وحسن المقال، فقالت لي: بإبتسام وخفر كالمستحية: إنه لا يوجد لدينا غرف خالية في الفندق، فقلت لها: لماذا وأنا جئت إليكم؟ فقالت: إن الأمم المتحدة قد استأجرت جميع غرف الفندق ولذلك لا مكان فيه لساكن جديد، فعرفت عندئذ سر تلك اللافتة الموضوعة على رصيف المدخل (محجوز).

فقلت لها: ماذا أصنع وأنا غريب لا أعرف اسم أي فندق غير فندق المسيرة؟ فقالت: سوف أتدبر الأمر ثم هاتفت هي فندقاً آخر وحجزت لي فيه غرفة، وقالت: هذا فندق (مزيان) أي حسن، إنه ٤ نجم واسمه فندق (نقجير) فقلت لها: أرجو أن تكتبي لي اسمه لأنه يصعب عليَّ حفظه، فكتبت اسمه وقالت: يمكنك أن تقف أمام فندقنا حتى يأتي (تاكسي) يحملك إليه.

وجاء (التاكسي) معه ٣ ركاب فذكر أنه متجه اتجاهاً معاكساً لاتجاه هذا الفندق، ثم جاء آخر وحملني إليه.

وعندما كنا نقترب من الفندق رأيت لافتة على صيدلية اسمها (صيدلية دشيرة) فقلت في نفسي (دشيرة) و(نقجير) هذا والله ما لا نعرفه في العربية التي نعلم أنها هي اللغة الوحيدة المعروفة للسكان الصحراويين في هذه المنطقة، إلا أنه من المعروف أن أسماء الأعلام من أماكن وجبال وأشجار قد تبقى بعد انهزام أهلها أنفسهم، أو انهزام لغتهم من ذلك المكان.

وجدت في مكتب الاستقبال في الفندق رجلاً وامرأة بادرت المرأة بإعطاء مفتاح الغرفة وربما كانت هي التي كلمتها فتاة فندق (برادور) وبعد أن انصرفت تذكرت، فأشارت إليّ أن أعطيها جوازي لتسجيله، والإطلاع على الجواز وتسجيله في الفنادق في المغرب أمر مهم جداً لهم.

ثم ذهبت بدون كتابة أي شيء حتى بدون توقيع إلى الغرفة الواقعة في الطابق الرابع من هذا الفندق الذي هو في أبنيته ومداخله ومرافقه يعادل أكثر من مستوى ٤ نجوم، إلا أن الغرفة ليس فيها تلفاز ولا ثلاجة، مع كونها واسعة فيها سريران متباعدان، ولها شرفة واسعة فيها كرسي يجلس عليه النزيل.

لم استطع مقاومة ملء العين من أحياء هذه المدينة العجيبة التي من أعجب ما فيها أنها ليست كلها ذات منظر واحد، ففيها أبنية بنيت على طراز مغربي تقليدي جميل، وفيها بيوت منفردة تدل على رقة الحال وفيها بيوت مبنية بشكل حديث على غير طراز معين.

كما أنها حسبما رأيته الآن من أمرها ليست مستوية الأرض فتجد الشارع يعلو ويهبط والمنازل كذلك، مما يدل على أن المستعمرين الإسبان لم يكلفوا أنفهسم عناء ملاحظة المستويات اللازمة للبيوت، وإنما يبنون على الأرض كيفما اتفق.

من الشرفة:

حي حديث في مدينة العيون التقطتها من سطح فندق نقجير

وأسرعت أطل من الشرفة وكأنما خفت أن يفوتني المنظر فكان عجيباً إذْ سقوف الحي أو الأحياء التي أراها من الشرفة كلها مسطحة لأن البلاد غير مطيرة، وليست كبيوت البلدان التي قدمت منها في إفريقية مسنمة بسبب المطر.

وبعض الحي بل أكثر ا لحي الذي أراه تنقطع بيوته بدون سابق إنذار في الصحراء الخالية من أي عود أخضر لا من نبت ولا شجر.

ومن أغرب ذلك شارع في الحي مسفلت ذو اتجاهين بينهما جزيرة مرصوفة يقف فجأة في الصحراء.

ولا توجد في هذا الحي أية شجرة أو نبتة إلا ما غرسته البلدية التي اعتنت به وغرست في بعض ميادينه وشوارعه نخيل الزينة وأشجاراً أخرى وإن كانت قليلة غير كثيفة، وقد رأيت في شوارع البلدة ما يؤكد طبيعتها الصحراوية الغربية إن كان ذلك يحتاج إلى تأكيد، وهو نفر من المارة فيها من إخواننا الصحراويين الذين يلبسون ملابس فضفاضة إلى درجة كبيرة حتى إن بعضهم إذا تركها من دون أن يكفكف أذيالها، واختلست الريح الإمساك بأطرافها صارت أشبه بالخيمة التي تسير وتلاشى حجم جسمه عند حجمها مما ذكرني بملابس الإخوة الموريتانيين المحافظين على الملابس القديمة.

ونسوة أيضاً من الصحراويات يشبهن الموريتانيات اللاَتي كن موجودات في المدينة المنورة قبيل استقلال موريتانيا وسافر أكثرهن مع أهلهن إلى هناك بعد الاستقلال.

ومع ذلك فإنني رأيت أن هؤلاء الذين يرتدون اللباس الصحراوي ليسوا هم الأكثرية من السائرين في الشوارع الذين أراهم الآن، وإنما بعضهم يلبسون اللباس المغربي المعروف الذي يكون البرنس هو الأعلى فيه، وبعضهم يلبسون الملابس العالمية المسماة بالزي الإفرنجي، وقد أصبحت للإفرنج وغيرهم والذين يلبسونها من غير الإفرنج هم أضعاف الإفرنج عدداً مثل الصينيين واليابانيين والكوريين وغيرهم، وهؤلاء اللابسون لهذا اللباس هم في الغالب من الشبان.

صورة من نافذة فندقي لجانب حديث من مدينة العيون

عندما وضعت أمتعتي في الغرفة فكرت في شيء لابد من السؤال عنه وهو ماء الشرب أيكون من (البزبوز) وهو الضنبور الذي يخرج منه الماء أم لابد من شرب الماء المعدني المحفوظ بالقوارير.

فسألت عالمتين كانتا تعملان في الطابق الذي فيه غرفتي فذكرتا أن الماء الذي يجري في الأنابيب لا يصلح للشرب لكونه ماء ملحاً وغير نظيف وأنه لابد من شرب الماء المحفوظ بالقوارير وأسرعت إحداهن تحضر زجاجة كبيرة من ماء معدني مشهور في المغرب كله اسمه (سيدي علي).

وكان واضحاً من مظهر إحداهما أنها من شمال المغرب، أما الثانية وهي الأصغر فإنها صحراوية أصيلة، تشبه الموريتانيات اللاَتي كنا نعرفهن في المملكة لولا أنها لشبابها رشيقة الجسم، وهي جميلة أيضاً.

قيسارية أم السعد:

قيسارية أم السعد

عاودت الجلوس في شرفة الفندق فرأيت وأنا فيها بناء فيه حوانيت يتقدمها رواق ذو أقواس عربية، وقد كتب عليه (قيسارية أم السعد) وعجبت من هذه الكلمة المشرقية الأصيلة التي نستعملها في بلادنا بلفظ (قيصرية) كيف وصلت إلى هذه النقطة البعيدة من غرب العالم العربي، وأعجب أيضاً أن تكون هذه (القيسارية) لأم السعد وليس لابي السعد مثلاً.

ولفظ (القيسارية) هذا هو اللفظ الذي كان مستعملاً في العراق والشام خلال العصور الوسيطة، وقد رأقني منظر صوامع المساجد المربعة التي تشبه الصوامع الأندلسية، بل إنها هي الصوامع الأندلسية إلا أنها لم تلق العناية مثلما لقيته الصوامع المبنية على المساجد الكبيرة المعتنى بها، والتقطت عجلاً صوراً للجميع، وكأنما خفت أن يفوتني منظر هذا الحي الغريب المقيم من أحياء عيون الساقية الحمراء عاصمة الصحراء الغربية المغربية الكبرى.

وهذا الحي الذي أراه هنا ليس فيه بيوت مبنية من الطين الذي يفترض أن تبنى به البيوت في البلدان الصحراوية، بل كله من الأسمنت، كما أنه لا أثر فيه للبناء بالصفيح أو بالخشب.

والجو الصحراوي البارد:

وكذلك فأجاني الجو هنا مثلما فأجاني منظر هذه البيوت فهو بارد لا يحتاج المرء فيه إلى إتقاء الحر في هذا الفصل من السنة الذي ابتدأ فيه فصل الصيف الشديد الحرارة في بلادنا، وقلت في نفسي: ربما يأتي الحر الشديد في هذه المنطقة فيما بعد فجعلت أبحث عن أي أثر لمكيف للهواء في الغرفة أو حتى لمروحة فلم أجد، ولم أر ذلك في الفندق أيضاً مما يدل على أن صحراءهم هذه التي نحن فيها الآن لا تشهد صيفاً حاراً مثلنا، وربما كان الصيف الحار في داخل البلاد أو يأتي في آخر الصيف.

وجاءت موظفة مكتب الاستقبال إلى الطابق الذي أنا فيه فسألتها عما إذا كان يوجد مطعم نظيف قريب فقالت: ماكاين مطعم نظيف إلا في الفندق أي لا يوجد مطعم نظيف في هذا الحي غير مطعم الفندق.

منظر من نافذة الفندق لجانب حديث من مدينة العيون

وفي الواحدة والنصف ظهراً نزلت إلى مطعم الفندق الذي هو واسع نظيف مجهز بكل ما يلزم المطاعم الحديثة حتى الأسقف المستعارة الحديثة، ولم أر فيه إلا عدداً قليلاً من الآكلين وكلهم ذو مظهر أوروبي، ولم يكن لديه من الطعام المغربي الأصيل ما أشتهيه وإنما كان عنده شواء من لحم الغنم مع البطاطس والخبز طلبت معه زجاجة ماء معدني وطلب ثمناً لذلك مائة درهم ومثل هذه الوجبة في مطاعم الرباط بأربعين درهماً مما جعلني أعزم على عدم الأكل فيه مرة أخرى.

وقد طال عجبي من كون الأجرة من المطار إلى المدينة بأربعة دراهم ووجبة الغداء الناقصة بمائة درهم.

تمشية في دشيرة:

منذ أن سمعت باسم الفندق (نقجير) والقاف فيه كالجيم المصرية وباسم (دشيرة) سألت موظف الاستقبال عن اسم الفندق فذكر أنه اسم موضع في جنوب الصحراء، وأما دشيرة فلم يعرف معناها، ولكنه ذكر أن الميدان الذي يقع عليه الفندق اسمه (ساحة دشيرة).

وهو ميدان واسع مستطيل من جهة الشمال من الفندق، وأمام الفندق من جهة الشرق ميدان مبلط بل مرخم معتنى به قد غرست فيه بعض أشجار نخيل الزينة وتتناثر فيه مقاعد حجرية جيدة قد جلس عليها عدد من الناس.

شارع خالٍ من أية ورقة خضراء في مدينة العيون

وجلت في هذا الميدان الذي يطفح بالمغاربة من لباس الصحراويين الفضفاض إلى لباس نسائهم، الذي يوحي على البعد بأن لابسته بدوية جافة سمراء، فإذا بك تراها عندما تصل إليها امرأة نضرة الوجه، منعمة المظهر، عليها أحذية من أحدث أنواع الأحذية، وإذا بها إذا سقط عنها الرداء الذي تلتحف به بدت أنيقة الثياب، ليس فيها من المظاهر غير المتمدنة

جداً إلا ثقل في جسمها يكاد يمنعها إذا قعدت أن تقوم إلا إذا اعتمدت على الأرض بكفيها.

وفي هذا الميدان عدد من المقاهي والمقاصف التي تقدم الحلوى أو المأكولات الخفيفة كما تقدم الشاي المغربي الأخضر الذي يكون النعناع الأخضر فيه أكثر من الشاي ولابد من مضاعفة السكر حتى يقاوم المرارتين مرارة الشاي ومرارة النعناع، وهو ذو مذاق خاص وقوي التأثير، فهو أقوى من شاينا الأسود الخفيف.

وقفت على أحد هذه المقاصف وفيه عدد من العمال من الرجال وامرأة واحدة أسرعت تحادثني على طريقة المغربيات في شمال المغرب حيث الإسراع إلى محادثة الرجال من النساء هو القاعدة فأخبرتها بما أريد وهو (إبريق) من الشاي الأخضر المنعنع فجاء به العامل وتقاضى ثمنه ثلاثة دراهم ويساوي ذلك ريالاً وربع الريال أو ثلث دولار أمريكي تقريباً، والثمن للشاي وللجلسة على مقعد في هذا الميدان الذي لا سيئة فيه إلا إلحاح بعض الذبان، ذات الأرجل الخشنة والصوت الطنّان، وقد لاحظت أثر ملوحة الماء في طعم الشاي.

المؤلف في ضاحية مدينة العيون

واستمتعت بالجلوس وأنا أرى الجالسين حولي من هؤلاء الساكنين في المدينة وأكثرهم ذو مظهر مغربي شمالي، وأما الصحراويون الذين يلبسون لباس الصحراء فإن عددهم فيه وفي مقهاة مجاورة له أقل من القليل.

وقد كثر الصبية الذين يجولون في هذه المقاهي وبأيديهم علب الدخان الاجنبية إلى درجة لافتة للنظر مؤسفة لكثرتها، وهي تدل على شيئين أولهما أن العمل المجدي لهم غير هذا قليل، والثاني أن الذين يشترون منهم كثير، وهذا هو الواقع المؤسف أيضاً، فقد لاحظت أن حوالي ٩٠٪ من الجالسين في هذه المقاهي يدخنون، وأكثرهم من الشبان ومن متوسطي الأعمار، وهو أمر شائع في مدن المغرب كلها، فالسمة الغالبة الظاهرة فيها هي وجود أعداد كبيرة من الشبان والرجال الذين هم في سن القدرة على العمل وهم جالسون يدخنون أو يبدون كما لو كانوا فارغين، وأكثرهم عليهم مظاهر العوز والحاجة.

والأرصفة على ميدان (دشيرة) هذا وفي الشوارع المحيطة به عريضة جداً ومبلطة وفي أماكن منه مساحات واسعة مبلطة كلها كأوسع ما تكون الميادين المبلطة ويلعب فيها الأطفال الكرة وغيرها من دون أن يضايقهم مرور السيارات.

وعلى ذكر السيارات فإنها هنا كثيرة كثرة لم أكن أتوقعها وبينها نسبة كبيرة من سيارات الأجرة وهي تعمل دائبة على كثرتها ويركب فيها الركاب مشتركين مع غيرهم لرخص أجرتها فهي تنقل الناس من أي جهة داخل المدينة إلى الجهة الأخرى بثلاثة دراهم إلا أنها لابد من أن تقف لتنزل راكباً أو تأخذ راكباً آخر، وهكذا لابد من سؤال سائق السيارة عن الجهة التي يقصدها فإذا كانت معاكسة للجهة التي حمل إليها راكباً أو ركّاباً من قبلك اعتذر عن حملك.

والأطفال كثر في هذا الميدان وما حوله من الشوارع، وبمناسبة ذكر الشوارع أقول إن أكثرها هنا على هيئة أزقة مستقيمة مبلطة الجوانب في اغلبها، ما عدا الشارع الرئيسي فإنه شارع عريض تتقابل فيه السيارتان بسهولة.

الحي الحجري:

ويسمى هذا الحي الذي يقع فيها فندقنا وفيه ميدان (دشيرة) هذا بالحي الحجري لكون أرضه حجرية، وهو كبير حديث نسبياً، وحداثته ليست في طرازه وإنما حداثة عهده بالإنشاء، وإلاّ فإنه ليس على طراز حديث ماعدا بعض الأبنية الموجودة فيه مع أن بيوته كلها من الأسمنت ولكنها على طراز قديم وبعضها لا طراز له، وإنما هو كالبيوت الطينية التي ليست لها نوافذ، وأكثر بيوته التي تقع على غير الشوارع الئيسية هي من طابق واحد أو طابقين.

بيوت في حي المطار الجديد في مدينة العيون

وفيه أسواق مزدهرة فيها بضائع عديدة أكثرها مستورد، وكلها من خارج منطقة الصحراء هذه حتى الفاكهة فقد رأيت حانوتاً يبيع الفاكهة ولديه منها أنواع ولكن بعضها قد ذبل وفات موعد صلاحيته فوجدت فيه فتى مثقفاً معه كتابه الجامعي ذكر أنه طالب في جامعة في أغادير وأنه يجلس هنا بالنيابة عن صاحب الحانوت لأنه قريبه، وذكر أن جميع الفاكهة والخضرات الموجود لديه هي من الشمال من المنطقة التي بين الصحراء ومنطقة (أقادير) المشهورة فاشتريت منه فاكهة وخضرات اثقلني حملها بلغت جملة قيمتها سبعة دراهم ونصفاً أي أقل بكثير من الدولار الواحد وفيها طماطم أعجبني منظرها وخيار و(فقوس) ويشبه النوع الكبير الطويل من القثاء وليس بالقثاء ولكنا نسميه (عَجُور) ويزرع في القصيم بكثرة ولكننا لا نعرف تسميته بالفقوس، وإنما نقول (العَجُور) وأظنها تسمية له جاءت إلينا من العراق، وفيها بطيخ أخضر (شمام) لذيذ الطعم، صغير الحجم كثير الوجود في المغرب.

وأفادني هذا الشاب المتعلم بما عرفته بعد ذلك عن غيره من أن اسم ميدان (دشيرة) هو على اسم وقعة حدثت في هذا المكان بين الوطنيين الصحراويين و بين الإسبان المستعمرين سميت في هذا المكان الذي كان ولا يزال يعرف بدشيرة.

فندق (نقجير) ذو الطبقات في حي دشيرة من مدينة العيون

أما اشتقاق الاسم فإنه لا يعرفه، ونعرف من لغتنا العامية في نجد (الداشر) بمعنى الذاهب المهمل- بفتح الميم الثانية- أطلق مجازاً على الطفل أو الشاب الناقص التربية الذي ليس له من يأمره وينهاه.

والمال (المدشر) بمعنى الماشية بصيغة البناء للمجهول هو المهمل الذي ليس معه من يرعاه.

ولم أجد من أهل البلاد الذين سألتهم بعد ذلك عن معنى دشيرة من ذكر لي ما يتصل بهذا المعنى.

وأما اللغة المسموعة هنا سواء من الرجال أو من الأطفال، بل من كل المتحدثين فإنها اللغة العربية وحدها لا شريك لها هنا، وأغلبها اللهجة المغربية الشمالية وهنا قسم من الناس يتكلمون بما يشبه الحسانية التي هي لهجة موريتانيا، وإن لم تكن هي الحسانية نفهسا فحدود موريتانيا كما هو معروف ليست بعيدة من هنا، وبلاد الصحراء التي يتجول فيها الأعراب من العرب أو البداة من غيرهم تكون في العادة ذات مجال لغوي واسع لعدم الموانع والحواجز التي تمنع من اتصال الناس فيها بعضهم ببعض إضافة إلى اضطرار أهلها إلى التنقل طلباً للمرعى الصالح أو الأصلح لماشيتهم.

وقد تجولت في الأزقة الواقعة في أطراف الحي، فوجدتها كلها مهملة ليس في أرضها زفت

وليس فيها أرصفة، وربما يرجع ذلك إلى كونها حديثة البناء، و إن لم تكن جيدة، لأن الحي الآن في حالة نمو وتوسع.

وعدت إلى الفندق قبيل الغروب فسمعت إذاعة المغرب من العيون ومن الرباط واضحة، آنست بها وسمعت آذان المغرب من الرباط، وذكر أن ذلك حسب توقيت الدار البيضاء والرباط، وكان المؤذن يؤذن والشمس عندنا في مدينة العيون حية، مما يدل على أنها ذاهبة جهة الغرب أكثر من الرباط، وقد يكون هذا واضحاً لمن يتأمل خريطة القارة الإفريقية حيث يراها أعرض في منطقة الصحراء وإلا فإن العيون مثل الرباط والدار البيضاء واقعة على ساحل المحيط الأطلسي.

قصر على مرتفع في مدينة العيون

برد الصحراء:

توقعت أن يؤذيني الحر هنا فآذاني البرد، فقد برد الهواء قبل المغرب، وصار يتسلل داخل الغرفة كأنه الهواء في آخر فصل الشتاء في نجد.

وبعد أن صليت المغرب والعشاء جمعاً في أول الوقت نزلت أتمشى فيما حول الفندق فلحقني البرد ووجدت أن الهواء أكثر مما يمكنني تحمله، وظننت أن ذلك لسبب فيَّ كأن يكون ذلك مقدمة لزكام أو نحوه ولكني وجدت الناس مثلي إذْ كلهم يرتدي شيئاً يقيه

يوم الجمعة ١٤١٣/١٢/١٤هـ:

إلى سوق الجمال:

كنت سألت البارحة عن السوق الذي يقع وسط المدينة، فأخبروني أن سوق الجمال هو في قلب المدينة، وهو ممتد طويل نسبياً، ووقفت على الرصيف قرب الفندق وهذه هي الطريقة للركوب في سيارة الأجرة، فمر بي أحدهم معه بعض الركاب وأخذني بجانبه فلما تحدثت إليه وجدته مغربياً، فقلت له: إنني أبحث عن صاحب سيارة أجرة من أهل المنطقة الصحراوية أذهب معه إلى رؤية معالم المدينة وما حولها يكون عارفاً بأمرها أكثر من المغربي الذي وفد إليها حديثاً.

شارع في الحي الجيد من مدينة العيون

ولم يستغل هذا السائق المغربي الشهم على عادة أكثر إخواننا أهل المغرب في الشهامة والبعد عن استغلال الغريب من دون حق، فقال: نعم أنا لست من أهل هذه المدينة وإنما أنا من داخل المغرب وسوف أبحث لك عن سائق صحراوي.

أنزلني في سوق الجمال وتقاضى أجره ثلاثة دراهم فقط، ولم أجد في السوق ما يحملني على البقاء فيه فهو سوق معتاد، أو دون ذلك، وهو محاط بالحوانيت المتلاصقة، ولكنها حوانيت صغيرة فيها سلع معتادة وتتخللها مقاهٍ أو مشارب أو حوانيت صغيرة.

وفي هذا السوق قسم للفاكهة والخضرات كل شيء فيه رخيص أو معتدل الثمن ما عدا الموز فإنه غالٍ مع أنه غير جيد.

ولم أجد في هذا السوق ما يجعلني أمضي فيه أي وقت، وقد سألت أحد المارة عن الجمال التي سمي هذاا لسوق باسمها وهي على صيغة جمع الجمل الذي هو ذكر الإبل، فقال: الجمال الآن ما فيه جمال نحروها يعني أكلوها وأهل الصحارى الإفريقية مشهورون بأكل لحوم الإبل، وليس في هذا السوق أي جمال: إنما اسمه هكذا لأنه كانت تباع فيه الإبل من قبل فيما ذكره لي أحدهم ولا أدري صحة كلامه.

وأوقفت سائق سيارة أجرة فقلت له: أأنت من أهل هذه المدينة؟ فاستغرب هذا السؤال الذي هو غريب من راكب غريب ففسرت له قصدي بأنني أريد أن أجول فيما حول المدينة مع سائق أجرة من أهلها، فقال: أنا من شمال المغرب، ولكن أنظر إلى هذا التاكسي المقبل فإن سائقه صحراوي.

وكان السائق صحراوياً بالفعل، ولا تزال فيه خشونة الصحراء وجدبها، فكانت أولى المبادرات منه أن لهجته صعبة لا تفهم بسرعة، بخلاف اللهجة المغربية المعتادة، وذلك لا لعجمة فيه ولكن لكونه كالأعراب عندنا الذين يسرعون في الكلام، وإذا استفهمت منهم عن شيء أعاده عليك باللهجة نفسها، وبالصيغة عينها.

ولما أخبرته برغبتي قال: أولاً أنا لا أستطيع أن أنقلك خارج المدينة فهذا ليس من عملي وإنما عمل التاكسي هذا داخل المدينة، وثانياً: أنا لا أعرف كيف يكون التفاهم معك على الأجرة فإنا غير معتاد على التأجير كما تقول بالساعة.

وتلطفت به، وداريته حتى فهم مقصودي، وقلت له: إذاً أذهب بي إلى الرّحَيْبة- على لفظ تصغير الرحبة، وهي مكان ذكروا أنه تباع فيه الإبل في جانب المدينة فذهب قبلها إلى مكان قريب مما سماه سوق الغنم ووقف بي عند سائق سيارة (جيب لاندروفر) وقال: هذا يقدر يروح بك خارج المدينة للذي تريد.

كان صاحب (اللاندروفر) بدوياً صحراوياً ملتفعاً بما يشبه الغترة السوداء، أو (الغدَفة) السوداء: وهي غطاء أسود للرأس والوجه لا يخرج منه إلا العينان، ولما أراد الحديث معي حسر اللثام الأسود عن فمه، وقال: سيارتي يركب فيها بالعادة ١٢ وأنت تبغي تركب وحدك؟

قلت: نعم، ولم يفهم مني أو فهم ولم يرد، فرجعت كاسف البال إلى الفندق.

جمعة العيون أو في جامع أبي كراع:

وبعضهم يسميه (جامع شارع أبو كراع) وذلك أن الشارع أو السوق الذي يقع عليه يسمى (سوق أبو كراع)، وسمي الآن (شارع مولاي إدريس الأول) ولكن الناس لا يعرفونه إلاّ بسوق أبوكراع.

و(أبو كراع) موضع مشهور يقع على بعد ١٠٠ كيلومتر من مدينة العيون جهة الجنوب الشرقي اكتشفت فيه مناجم غنية بمعدن الفوسفات، استغلها الإسبان إبان استعمارهم للبلاد، ولا تزال تستغل الآن، وسمي هذا السوق على اسمه.

كنت سألت رجلاً في مكتب الاستقبال في الفندق عن أقرب مسجد جامع أصلي فيه الجمعة، وكنت رأيت صومعتين أي مئذنتين قريبتين من الفندق، ولكنني لا أدري أتقام الجمعة في المسجدين أم لا، فأخبرني الرجل بأنها تقام فيهما معاً ولكن المغربي بينهم بالسنبة للفندق هو أحسن.

ذهبت على قدمي للمسجد فلما دخلت السوق الذي يقع فيه وكنت مررت به عصر أمس وجدتهم أغلقوه بحبال معترضة عليها خرق ظاهرة لئلا تدخله السيارات، وفرشوا ما حوله من أرض الشارع إلى مسافات بعيدة بالحصر، ورأيت الناس فيها صفوفاً تحت الشمس في الشارع والزقاق المجاور للمسجد، ومع أن الشمس ليست حارة، وأن الهواء يهب بارداً منعشاً فإنني لم أود الصلاة في الشمس، ولو كان ذلك فوق فراش من هذه الحصر الكثيرة التي تعجب من وجودها بهذه الكثرة في المسجد، فدخلت إلى داخل المسجد وجلست بين شخصين أفسحا لي جزاهما الله خيراً.

كان قراء من داخل المسجد يتلون القرآن بصفة جماعية أي أنهم أربعة أو خمسة يتلون القرآن تلاوة مجودة لكنها قراءة ورش غير المعتادة عندنا، وتتميز قراءتهم بالهَذّ أي السرعة في القراءة، كما أنهم يقنون على الممدود مداً طبيعياً جائزاً ولو كان في وسط الكلمة، ولكن تلاوتهم كانت واضحة جداً للجميع.

وكنت بكرت قليلاً لذلك استمعت إلى قراءتهم فترة سكتوا بعدها فدخل الإمام وأذن المؤذن أذان ترجيع وهو أذان أبي لبابة الصحابي رضي الله عنه، وكيفيته أن يقول الله أكبر الله أكبر بصوته العالي وهنا المؤذن يؤذن من مكبر للصوت، ثم يقول سراً الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، ثم يرفع صوته بالتكبيرتين التاليتين وهما الثالثة والرابعة إلى أن يكمل الأذان بصوت مرتفع.

ولكن الغريب أنه ما أن أتم المؤذن الأذان حتى ابتدأ مؤذن آخر، فأذن مثله بدون زيادة أو

نقص حتى في الترجيع، وذلك من مكبر الصوت الذي يسمعه الجميع.

وعندما انتهى هذا المؤذن الثاني نهض بعده مؤذن ثالث، فأذن من دون ترجيع أذاناً ثالثاً سمعنا منه أنه ابتدأ بالأذان بتكبيرتين فقط، الله أكبر الله أكبر، ثم قال أشهد أن محمداً رسول الله إلى آخر الأثان.

وقد ذكرني هذا بما رايت أن أهل نيجيريا يعملونه وبخاصة في مناطق اليوريا منهم، إذْ كان يؤذن ثلاثة ولكنهم يكونون في انحاء متفرقة من الجامع ولا يؤذن في المكبر إلاّ واحد، وكذلك الأمر في مدينة (أغاديس) الصحراوية من جمهورية النيجر.

أما أهل (شاد) فإنني كنت صليت معهم الجمعة قبل أيام قليلة، فلم أرهم يفعلون ذلك إلا الترجيع، وأما الأذان فإنه يكون أذاناً واحداً، وربما كان ذلك ناشئاً عن كون إمام جامع الملك فيصل الذي هو الجامع الكبير متخرجاً في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

نهض إمام الجامع هذا بعد آذان المؤذنين الثلاثة فألقى خطبة بليغة موضوعها تعداد نعم الله تعالى على العباد ووجوب شكرها، وكان إلقاؤه جميلاً فصيحاً لم أحفظ عليه لحنة واحدة في النحو أو الصرف.

وهذا أمر عرفناه من إخواننا علماء المغاربة أن يعتنوا بمعرفة النحو، وأقرب مثل على ذلك هو في الملك الحسن الثاني ملك المغرب الذي يخطب بالعربية ارتجالاً من دون لحن، وإذا سمعه السامع منا ذكر قوماً في بلادنا من غير العلماء الذين إذا خطبوا رفعوا زيداً هدفاً لضرب عمرو من دون أن يبحثوا عما يرضي سيبويه، أو ما يشعر أنهم يحترمون قواعد لغتهم العربية الجميلة.

كان داخل الجامع ممتلئاً مثل خارجه حتى إن الصفوف بعد إقامة الصلاة كانت متقاربة إلى درجة أنه يصعب على المصلي أن يسجد مستقيماً في سجوده لأن راسه يصطدم بالصف الذي أمامه.

وقد رأيت القوم على غاية من النظافة في ثيابهم وفي أبدانهم مع أنهم في بيئة صحراوية يقل فيها الماء.

وعلى ذكر الثياب أقول: إن الملابس هنا كان أكثرها مغربياً أصيلاً يليه اللباس الصحراوي وهو قليل ومثله اللباس الإفرنجي المخفف فهو موجود على بعض الرجال والشبان.

وما يسر أن بعضهم أحضر معه أبناءه وإن كان ذلك أقل مما يفعل الإخوة المسلمون من الهنود أو الماليزيين الذين يحرصون على أن يحضروا معهم صبيانهم إلى المسجد يوم الجمعة من أجل تعويدهم على الصلاة.

وقد سارع القوم إلى الانفضاض بعد الصلاة مباشرة من دون أن يتلبثوا أو يصلوا بعدها ركعتين وسارعت معهم إلى الخروج حرصاً على حذائي الذي تركته خارج المسجد.

وذكرت بهذا ما يصنعه المصلون في عدد من هذه البلاد المالكية المذهب، إذْ يخرجون من الجامع بعد التسليم من الصلاة مباشرة ومن ذلك ما شاهدته في نيجيريا وغيرها من أقطار إفريقية الغربية، وأقرب ذلك مني هو ما شهدته في جامع الملك فيصل في (انجمينا) عاصمة شاد قبل أيام.

وهو عكس ما يحدث في مساجد الأتراك وكثيرين غيرهم من حنفية المذهب الذي تراهم يلزمون أنفسهم بأن يصلوا بعد صلاة الجمعة عدداً كبيراً من الركعات نافلة أكثرهم يبلغ بها ست عشرة ركعة، وأذكر أننا كنا نصلي في مساجدهم ركعتين بعد صلاة الجمعة، ثم نريد أن نخرج من الجامع فلا نستطيع ذلك لكون الناس كلهم لا يزالون موجودين في المسجد ولا طريق للخروج منه.

كساعة الفطور في رمضان:

انصرف الناس من صلاة الجمعة بسرعة كما قلت فور الفراغ من الصلاة، وامتلأت بهم الشوارع المحيطة بالمسجد لأن المسجد كان مزدحماً والشوارع التي بجانبه مليئة بالصفوف، الذين صلوا وسط شمس صاحية، ولكنها ليست حارة

وجعلت لجهلي بعادتهم- اتمشى على قدمي وأتمتع برؤية ما حولي إلا أنني لم أكن أحمل (مصوِّرة) بيدي استثقالاً لحملها في المسجد، وإلاّ لالتقطت بها صوراً لصفوف المصلين في الشارع.

شارع في قلب مدينة العيون

وبعد فترة قصيرة اختفى الناس من الشارع، وقل مرور السيارات، وعدمت سيارات الأجرة أو كادت وهي كانت تجول في الشوارع لالتقاط الناس منها قبل ذلك.

وكنت واقفاً أثناء ذلك في الشمس أنتظر سيارة أجرة تمر لأذهب إلى مطعم داخل المدينة ذكروا أنه يقدم طعاماً مغربياً خالصاً، ووقفت ووقفت وقد انقطع مرور السيارات، وقل الناس في الشوارع حتى شبهت ذلك بالساعة التي تلي غروب الشمس في شهر رمضان عندنا وهي ساعة الإفطار حيث تخلو الشوارع من الناس والسيارات، وأحسست بشدة حرارة الشمس رغم الهواء البارد.

فوجدت شخصاً مثلي ينتظر سيارة أجرة فجعلت أتحدث إليه فترة، وهو يقول: الساعة الآن ساعة القيلولة والغداء، أهل السيارات راحوا لبيوتهم.

وبعد لاي وانتظار متعب جاء سائق وجد لي مكاناً واحداً عنده فركبت معه وأخبرته بقصدي من الذهاب للمطعم وسألته سؤالي التقليدي عما إذا كان من أهل هذه المدينة؟ فأجاب: لا، إنه من داخل المغرب.

فليكن استفتاءاً:

مما رأيته في مدينة العيون هذه واعتقد أن بقية الأماكن في الصحراء المغربية مثلها أو قريبة من ذلك هو أنه إذا جرى الإستفتاء في الصحراء المغربية في مثل هذه الظروف فإن النتيجة ستكون الإنضمام إلى المغرب بدون نزاع، وذلك لأمور عديدة أولها أن جماعات (البوليساريو) التي تطالب باستقلال الصحراء وإنشاء دولة مستقلة لهم فيها هي جماعات مفلسة، تستند على قوة الآخرين وبخاصة الجزائريين، وثانيها أن الحكم المغربي للصحراء قد توطد واستقر وأنشأ في البلاد مرافق جديدة ضخمة من طرق وشوارع وميادين ومنشاءات أخرى فاكتسب رضا أكثر الشعب.

ومنها وهو أهمها وهو الذي عرفته بعد زيارتي لمدينة العيون هذه أن السكان الذين فيها الآن أغلبهم من مغاربة الداخل الذين حضروا إليها للعمل، أو ربما كان بعضهم من الصحراويين الذين كانوا يعملون داخل المغرب منذ مدة طويلة عادوا إلى الصحراء، وهم بلا شك سوف يصوتون في الاستفتاء بطريقة أو بأخرى، أي ولو بإظهار كونهم من أهل الصحراء الأصلاء، ولا يكون تصويتهم إلا في صالح الإنضمام إلى المغرب، وبذلك تكون قضية الصحراء محسومة منذ الآن للبقاء مع المغرب.

وهذا أمر يفرح له كل عربي مسلم يسره جمع شمل العرب المسلمين في دولة واحدة

بديلة من هذا التشرذم الذي فتتهم في دول كرتونية صغيرة يضحك من بعضها أهل القرون الوسطى.

امرأة صحراوية تحمل طفلها خلف ظهرها كما تفعل الإفريقيات في مدينة العيون

وحتى موريتانيا لو كان لنا شيء من أمرها لنصحناها بأن تنضم إلى المغرب في الحال، رغم كونها قد استقلت بالفعل منذ سنين، وذلك لكون الاتحاد قوة، والمرء خير له أن يعيش مواطناً في دولة كبيرة عزيزة مهابة الجانب من أن يعيش في دولة صغيرة معرضة للاعتداء حتى وإن كانت غنية، وهذا أمر عام وهناك أمر خاص بموريتانيا، وهو الذي من أجله كان طلب الاتحاد مع المغرب فيما لو قدمه الموريتانيون معقولاً هو أن الموريتانيين البيض مهددون بأن يصبحوا بعد عهد قريب أقلية في بلادهم رغم سعة البلاد، ومستقبلها الاقتصادي المرموق، وذلك لكون إخواننا من المواطنين الموريتانيين السود يتزايدون الآن بدرجة تفوق تزايد البيض أضعافاً مضاعفة، وذلك عن طريق الإكثار من الزواج وانسال الأولاد، فكثير منهم عنده أربع زوجات ومحجموعة ضخمة من الأولاد على أن الموريتانيين البيض لا يتزوجون في الغالب إلا من زوجة واحدة، وأولادهم غير كثيري العدد.

والذي يتجول الآن في (نواكشوط) عاصمة موريتانيا يرى أن اللون الأسود يكاد يغلب على اللون الأبيض بين سكانها.

ونحن لا نقول هذا الكلام هنا ترجيحاً للون الأبيض على الأسود ولا العكس وإنما هو

بيان لأمر مظنون نتخيل أنه يصبح واقعاً بعد ذلك، وإلا فإنه سيان عندنا أغلب اللون الأسود على الأبيض في موريتانيا أو لم يغلب، لأن الجميع إخواننا في الدين وأشقاؤنا في عروبة اللسان، ولا مانع لدينا في أن تصبح موريتانيا مثل السودان وإنما الطبيعة البشرية المعروفة هي نزوع أي لون إلى اللون الذي يماثله مثل نزوع السود إلى التجمع مع السود والسمر مع السمر الخ.

ويؤمئذ إذا أصبح البيض في موريتانيا أقلية فعلية فإن إخواننا السود سيطالبون بحقهم المشروع في أن يحكموا البلاد ويسنوا من القوانين والأنظمة فيها ما يتفق مع رغباتهم، ولهم الحق في ذلك إذا أصبحوا أغلبية ولا شك أن إخواننا البيض هناك سيقابلون ذلك بعدم الرضا، وربما بالرفض، وعند ذاك سيفكرون فيما يخرجهم من كونهم أقلية لونية في بلادهم فلا يجدون عن الانضمام إلى الدولة المغربية بديلاً.

ويلاحظ هنا أننا تكلمنا على البيض في موريتانيا ونحن نريد بذلك مقابلة لونهم الأبيض باللون الأسود وإلا فإن أكثرهم سمر وفيهم بيض بالفعل.

ولم نقل العرب لأن السكان البيض في موريتانيا هم من العرب ومن الإخوة المستعربين أو لنقل إنهم من العرب العريقين في العروبة مثل الضهاجيين وغيرهم من المنسوبين إلى البربر تعربوا حُبّاً في العروبة وهجروا لغة آبائهم وأجدادهم وصاروا عرباً مثل سائر العرب في الحواضر العربية الكبيرة، بل هم أكثر عروبة منهم واقعاً وماضياً.

عود إلى قلب المدينة:

ولنعد إلى ما كنا بصدده من السعي إلى الوصول إلى قلب المدينة حيث المطعم الموصوف لنا، وأقول: إنني لم أجد المطعم الذي ذكروه فجعلت أسأل من يصادفنا من المارة على قلتهم مع أنهم هنا في قلب المدينة أكثر منهم في الحي الحجري الذي يقع فيه فندقنا، فندق (نقجير) فبعضهم يقول: إنه لا يعرف مطعماً وإنما يعرف (المقشدة) وهي أشبه بما صار يعرف الآن في بلادنا (بالكافتيريا) التي يمكن ترجمتها إلى المقصف وهو الذي يقدم الأشربة الحارة والباردة، ويقدم إلى جانبها مأكولات خفيفة.

حتى تطوع أحدهم وذهب معي ماشياً إلى مطعم ذكره في شارع الجمال ما أن دخلته حتى عرفت أنه مطعم شعبي بما توحي به هذه الصفة لكثير من الناس في بلدان العالم الثالث.

ومع ذلك فإنه يقدم أغذية مغربية محدودة لأن صاحبه من داخل المغرب وأحضر لي صحناً من اللحم السليق المطبوخ مع الخضرات وشرائح البطاطس وخبزاً وصحناً من الفاصوليا الجافة وصحناً من السلطة من البنجر بدون خس مع زجاجة صغيرة من الماء المعدني الشهير هنا وهو (سيدي حرازم).

وكان الطعام لذيذاً مثل الطعام المغربي المعتاد، ولكن الأدوات المستعملة في المطعم ليست بذاك، وعلى سبيل المثال كان الصابون الذي ينظف الآكلون به أيديهم بعد الاكل سائلاً يضع فيه الغاسل طرف أصبعه ثم يغسل بذلك باقي يده من صنبور الماء في حوض الغسيل في المطعم.

وبعد انتهاء الطعام طلبت فنجاناً من القهوة فكان ثمن ذلك كله (١٨) درهماً وهو أكثر وألذ من غداء الفندق أمس الذي تقاضى عنه مائة درهم.

عاودت التمشي في سوق الجمال الذي لا علاقة له بالجمال- بفتح الجيم- وكان الهواء بارداً منعشاً يشبه هواء الشفا بالقرب من الطائف، فهو إذا هب أبرد من هواء مدينة الطائف في الصيف، والمدينة نفسها الآن أبرد من الطائف، بل أبرد من الشَّفَا.

قول حديث:

رأيت أن أنقل هنا نبذة كتبها الأستاذ الصديق بن العربي وهو مؤلف مغربي في كتابه: (كتاب المغرب) عن الساقية الحمراء هذه فهو مغربي و(أهل مكة أدرى بشعابها).

قال:

الساقية الحمراء: هي المنطقة الواقعة جنوب إقليم طرفية، كانت خاضعة للنفوذ الإسباني وامتنعت إسبانيا عن إعادتها للمغرب بعد الاستقلال وبعد مفاوضات متعددة قرر جلالة الحسن الثاني تجنيد الأمة لتحريرها فنظم المسيرة الخضراء الشهيرة التي سار فيها ٣٥٠ ألف من المغاربة وزحفوا إليها في مسيرة سلمية، ثم تم الاتفاق بين المغرب وإسبانيا بموافقة الأمم المتحدة وتم استرجاعها في أوائل سنة ١٩٧٦م.

شارع في حي شعبي في مدينة العيون

وعاصمة المنطقة هي مدينة العيون التي أصبحت بعد عودتها إلى الوطن الأم مركزاً اقتصادياً مهماً، ومركزاً للحركة العمرانية والاقتصادية والتجارية.

وبجنوب العيون توجد مناجم الفوسفاط الشهيرة ببوكراع التي تنتج آلاف الأطنان من هذا المعدن الثمين حيث يصدر إلى الخارج من ميناء العيون.

ومن مدينة العيون تتفرع طرق كثيرة إلى جميع أنحاء الصحراء.

وفي وسط الطريق بين العيون وتندوف (٧١٠ كلم) توجد مدينة سمارة التي أسسها الشيخ المجاهد ماء العينين في آخر القرن الماضي، وبنى بها مسجداً وزاوية ومدرسة ومكتبة، وجعل منها مركزاً لدراسة العلم ومقاومة المحتلين من فرنسيين وإسبان، واستقر بها هو وأولاده وأنصاره وجماهير المتطوعين للجهاد، وبعد وفاة الشيخ سنة ١٩١١م احتلها الفرنسيون ثم تنازلوا عنها لإسبانيا ١٩٣٦م وهي اليوم عاصمة المنطقة(١).

إنتهى.

جولة في مدينة العيون:

اسمها الكامل (عيون الساقية الحمراء) والساقية الحمراء: وادٍ يقع إلى جانبها من جهة الشرق وهو وادٍ صحراوي يسيل إذا نزل المطر غزيراً، ولكن في غير انتظام فهو مثل بعض

١ كتاب المغرب، ص٢٢٣- ٢٢٤

الوديان الكبيرة في بلادنا قد يسيل سنة ويتوقف بعدها عدة سنوات، يسيل بعدها سنتين متواليتين، وكان في هذا الوادي المسمى الساقية الحمراء ثلاث عيون من عيون الماء يخرج منها الماء بمقادير غير كبيرة جفت منها اثنتان وبقيت واحدة حتى الآن تنضح بماء معدني سيأتي الكلام عليه عند ما نزوره بإذن الله.

وقد بقيت التسمية لهذه البلدة (عيون) على لفظ جمع العين وإن لم تبق منها إلا عين واحدة، أما الساقية الحمراء فإنها سميت بذلك لوجود ارض حمراء بجانبها سميت باسمها.

ركبت مع سيارة أجرة في طريق العودة إلى الفندق وعرضت عليه أن يأخذني في جولة على هذه المدينة وضواحيها فقبل ذلك وهو من أهل منطقة تقع إلى الشمال من منطقتنا هذه، لهجته غير صحراوية، وذكر أن أصل موطنه يقع بين العيون وبين (أقادير) وأنه صحراوي ولكنه ليس من أهل هذه المنطقة، وتبين لي بعد ذلك أنه بربري الأصل من بربر الصحراء الذين منازلهم الأصلية في إقليم السوس وما عنه جنوباً من الصحراء، ومع ذلك فإن لغته عربية أصيلة، وهو يتكلمها بلهجة موريتانية لمجاورته للحسانيين الذين يتكلمون الحسانية وهي لغة عرب بني حَسَّان في هذه المنطقة وحتى حدود موريتانيا الجنوبية على نهر السنغال جنوباً.

واللغة الحسانية صارت لغة العرب والمستعربين في موريتانيا سواء كانوا بيضاً من ذوي الأصل الصنهاجي التي هم عرب الأصول كما يقول النسابون الذين يؤكدون أنهم يرجعون في الأصل إلى حمير، أم كانوا من المستعربين من إخواننا المسلمين من السود في جنوب موريتانيا الذين استعربوا أو تعربوا أيضاً من دون ضحة أو هيلمة.

اسم سائق التاكسي هو (الزناتي حسن) والعادة في المغرب أن يقدموا اسم الأسرة على اسم الشخص في الذكر فاسم أسرته هو (الزناتي) واسمه الخاص به هو (حسن) و(الزناتي) هذه تدل لأول وهلة في اسم من ينتسب به إلى كونه عربياً من بني هلال، أو بربري من (زناتة) غير أن هذا أصبح على النطاق المغربي مجرد اسم لا يدل على النسب إلى قبيلة معينة.

أول ما استرعى النتباهي في سلوك الأخ حسن أنه كان يدير شريطاً في سيارته مسجلاً عليه القرآن الكريم كان يستمع إليه قبل أن يقف لي وعلى وجهه نور التدين والخشوع.

شارع مكة:

جزء من شارع مكة في مدينة العيون

فهم الأخ (الزناتي) ما أريده، فسلك بي شارعاً مهماً في المدينة اسمه (شارع مكة) وهذا اسم إسلامي سار غير أن موضع وقوفنا في هذا الشارع الطويل كان في حي ذي اسم إسباني استعماري وهو حي (كولومينا) ويقع في مكان مرتفع من المدينة يشرف على ما كان عنه شرقاً وشمالاً من المدينة، وفيه منازل ومبانٍ رسمية ذات طراز متميز وهو مؤلف من اتجاهين بينهما جزيرة ضيقة بدون تشجير.

جامع مولاي عبدالعزيز:

أبصرت وأنا في شارع مكة مسجداً أندلسي الطراز جميل المئذنة التي يسمونها هنا (صومعة) وهي جديرة بهذا الاسم لانها مربعة عالية.

المؤلف عند جامع مولاي عبدالعزيز في مدينة العيون

وهو (جامع مولاي عبدالعزيز) ويقع في طرف المنطقة القديمة الجيدة من المدينة، ولكنه متميز بطرازه الأندلسي المحبب للنفس، وبأنه معتنى به، وبمنطقته التي هي ذات أرصفة جيدة نظيفة، فيها أشجار خضر قليلة أكثرها نخيل الزينة الذي لا يعد وجوده تزييناً بجانب نخلتنا الجميلة نخلة التمر الكريمة التي هي أرشق منه قواماً وأعلى هامة وأكثر انسجاماً في العُسُب- جمع عسيب- بل إنها أكثر ليناً وانسجاماً من نخلة الزينة هذه الشائعة في أوروبا الجنوبية وشمال المغرب، لأنها غليظة الساق، ضخمة الجذع خشنة المنظر، جثلة العسب حتى إن أقرب ما يكون إليها من نخلنا في المنظر هو منظر (الفَحَّال) الذي هو ذكر النخل، ومعلوم أنه بين نخلنا كالثور بين البقر.

ذكروا أن (جامع مولاي عبدالعزيز) هذا هو أول جامع انشيء في مدينة العيون هذه، ولكن الجوامع التي رأيتها فيها بعد ذلك لا تدانيه في الجمال وإن كانت بنيت بعده.

وفي حافة حي (كولومينا) رأينا بيوتاً تعلوها كلها قباب مجتمعة بمعنى أن كل غرفة من صف الغرف عليها قبة مثل التي بجانبها وهكذا.

ذكروا أنها من بناء الإسبان إبان الحكم الاستعماري، وقد رأيت بعد ذلك قباباً قليلة في الأبنية القليلة التي كانوا أقاموها في المدينة.

حي المطار الجديد:

والجديد صفة للحي وليس للمطار، إذْ المطار واحد، ولكنه أنشيء بجانبه حي جديد، جميع بيوته مبنية من الأسمنت المسلح إلا أنها لا طابع لها ما عدا بيوتاً حمر الطلاء فيها ليس لها شرفات، وإنما فيها نوافذ محاطة بأفاريز جصية بيض، وشوارعها غير الرئيسية ليس فيها زفت ولكنها واسعة بالنسبة الى شوارع المدينة الداخلية التي يغلب عليها الضيق.

المؤلف في حي المطار الجديد في مدينة العيون

حي ولي العهد:

ومن حي المطار الجديد هذا مررنا بحي آخر ناشيء اسمه حي (ولي العهد) فيه طائفة من البيوت مطلية كلها بلون أصفر ، ورأيت بعض الساكنين من الصحراويين الأصلاء بدليل ما يرتدونه من ملابس فضفاضة على الرجال والنساء، وإن كانت تختلف في هيئتها بين الجنسين فملابس الرجال سروال فوقه قميص ضيق أو صديري وفوق ذلك ثوب واسع جداً، إذا تركه لابسه بدون أن يرفع ذيليه خط في الأرض.

وغالباً ما يكون الرأس عارياً يكون مغطى في بعض الأحيان بلفافة كبيرة يختلف لونها عند بعضهم عن بعض، وغالباً ما تكون عند الرعاة سوداء ينزل منها جزء على هيئة العمامة المحنكة التي يتدلى منها جزء إلى ما تحت الحنك، إلا أنهم هنا يجعلونه يغطي الفم وأسفل الوجه.

بيوت في حي ولي العهد في مدينة العيون

وأما النساء فقد سبق وصف لباسهن الفضفاض وأن أهم ما فيه هو الرداء الواسع الذي يلف به الجسم كله فوق الثياب من القدمين إلى أعلى الراس، ولكنه لا يغطي من وجه المرأة شيئاً، فالمرأة سافرة الوجه أبداً بخلاف الرجل.

ومثلما أن الحجاب بمعنى أن تغطي المرأة وجهها غير معروف الآن في داخل المغرب إلاَّ فيما قلَّ فإنه غير معروف عند هؤلاء الصحراويات أصلاً، يستوي في ذلك عربهم وبربرهم

الذين أصبحوا في الصحراء الغربية هذه وفي موريتانيا عرباً خلصاً أو كالعرب الخُلَّص في الوقت الحاضر، لا سيما أنهم يشعرون أن بربريتهم هذه القريبة لا تنفي عنهم عروبتهم البعيدة اتباعاً لقول النسابين العرب بأن البربر أصلهم من حمير هاجروا قبل الإسلام بأزمان من اليمن إلى بلاد إفريقية.

سوق الغنم:

المؤلف مع غنم الصحراء المغربية البعيدة

قصدنا سوق الغنم من أجل أن أرى غنمهم وأرى بدوهم الذين يبيعون تلك الغنم فمررنا بحي اسمه الحي الصناعي أكثر ما رأيت فيه مما يتعلق بالصناعة إصلاح السيارات وما يتعلق بذلك من حدادة وسمكرة وحرف أخرى قليلة بسيطة، وهو ليس بواسع، ومع ذلك وجدت فيه محلاً تصلح فيه السيارات مكتوب عليه اسمه (مرآباً)، والمرآب هنا فصيحة، وهو ما يقابل كلمة (كراج) الأعجمية إذا كان موضعاً لبقاء السيارات للإصلاح فيه، أما إذا كان لمجرد وقوفها أو مكثها للتخزين فإن الأفصح أن يسمى (حظيرة سيارات).

وجدنا سوق الغنم واسعاً محوطاً بحائط مبني قصير، إلا أنه ليس عليه باب وفيه أكوام من الغنم كالتي في بعض المدن الصغيرة في بلادنا من حيث العدد، وكلها من تربية أو لنقل ترعية البلاد المغربية فهم لا يكادون يستوردون منها شيئاً، اللهم إلا أهل الحدود القريبة من موريتانيا فإن الأغنام فيها هي أرخص من المغرب، بل هي أرخص فيها من البلدان الإفريقية

الخضراء المجاورة لها كالسنغال التي تستورد كثيراً من ماشية اللحم من موريتانيا رغم اخضرار أرضها، واغبرار أرض موريتانيا.

مع ثلاثة من العرب المتلثمين في سوق الغنم في مدينة العيون

وقفت عند بائع للغنم وهو بدوي بادرني بمدح غنمه، ولاحظت أن غنمهم بيض، صغيرة الحجم يمكن أن يزن النعيمي الجيد الذي يكون عندنا في حدود العراق كما يكون في العراق نفسها واحداً ونصفاً أو ربما اثنين منها، أما الخروف النجدي فإنه يزن أكثر من اثنين من الكبيرة من خرافهم، ومع ذلك جسستها والجس: هو أن يلمس الإنسان مواضع اللحم والشحم في الدابة ليعرف من ذلك أسمينة هي أم هزيلة، وما هو مقدار سمنها وهزالها إن كانت هزيلة.

وقلت للزناتي حسن وهو واقف بجانبي: إنها صغيرة وغير سمينة وهذا هو الواقع فأسرع البائع يجر واحدة منها وليس أكبرها يقول لي: هذا كبير وسمين، فذكرت قول الشاعر فيمن يدعي الشعر ولا يحسنه:

ويوهمـــنا أنه شـــــاعر　　كأنـا قدمـنا مـن الباديـــة

الأعرابي الذي حسر لثامه عن وجهه وهو يتحدث إلى المؤلف

وهذا الأعرابي المغربي البعيد يظن أننا لم نقدم من البادية، وأننا لا نعرف الخروف السمين من الخروف الهزيل، وذلك أنه لم يعرف من أي البلاد أكون.

سألته عن سعر الخروف الواحد فأجاب (٦٠٠) درهم، وهذا يعادل ٢٥٠ ريالاً وهو سعر رخيص للخروف إذا كان سميناً، ولو كان صغيراً ولكن مثله في بلادنا لا يساوي أكثر من ذلك إذا كان هزيلاً.

وسألت الأعرابي عن السبب في كونها غير سمينة فأجاب ويشترك معه في الجواب الزناتي السائق الذي أصله بدوي أيضاً، وأعراب كانوا واقفين قائلين جميعاً: السبب إن المطر قليل.

ورأيت أعراباً من أعراب الصحراء الغربية واقفين وذلك ظاهر من مظاهرهم ولباسهم، ومع ذلك سألتهم عن القبيلة التي ينتمون إليها وهم ثلاثة فنظروا إلي متعجبين، لأنني بادرتهم بهذا السؤال المباشر ولكن الأخ حسن الزناتي تدخل، فقال: الأخ سعودي يريد أن يعرف قبيلتكم، وقلت لهم: إنني أريد أن أعرف حتى أخبر أبناء عمكم عندنا عنكم، فذكروا أنهم من (حسان) وحسان نسب طويل عريض تحته عشرات القبائل والأفخاذ ولا يُعَرِّف الإنسانَ وحده وكأنهم ظنوا مثل صاحب الغنم أنني لا أعرف ذلك.

وقد اكتفيت به لئلا اثير استغرابهم والذي يتبعه استعجامهم عن الإعراب في الكلام،

فقلت لهم بلطف: إنني أريد أن التقط معكم صورة تذكارية، فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: لا بأس، وبادر أحدهم بخلع عمامته السوداء ليبدو وجهه واضحاً في الصورة فرجوته أن يبقيها عليه لأنني أريد أن تكون الصورة طبيعية.

حي الفتح:

غادرت (سوق الغنم) وهذا هو اسمه عندهم وليس مجرد وصف له من عندي من دون أن أشفي النفس منه، وذلك لكون أهله كلهم تقريباً التفوا علينا وتركوا أغنامهم، حتى صارت أية حركة مني يكون لها رد فعل من عيونهم أو ألسنتهم.

وغادرناه إلى حي آخر فمررنا بسور للمطار بعيد عن مكاتبه، فإذا هو مبني من الطين والحجارة المحلية على طوله.

شارع في حي الفتح فيه امرأة صحراوية تمشي

ومن الطريف أنهم جعلوا على ظهر هذا الحائط (خزازاً) وهو الذي يمنع من يريد أن يقفز من فوق الجدار وهذه عادة قديمة كانت عندنا فكان الناس يضعون الخزاز من شوك شجر قوي يثبتونه على أعلى الجدار قطعاً من الزجاج مثبتة بالطين على ظهر الجدار، بحيث لا يستطيع أن يتسوره متسور من دون أن تجرحه.

حتى وصلنا حياً جميل الاسم، إذ اسمه (حي الفتح) أول ما استرعى انتباهي فيه امرأة

بيضاء بياضاً ناصعاً قد حملت طفلها وهو أبيض أيضاً على ظهرها كما تفعل الإفريقيات السوداوات إذْ يضعن أولادهن خلف ظهورهن مربوطين بحبل غليظ من القماش.

والبيوت التي في طريقه الذي دخلنا منه وهو الموالي للبرية تماماً أي أنه ليس بينه وبين الضحراء شيء من الحواجز هي شعبية من طابق واحد من لبن الأسمنت، ذات سقوف مسطحة.

ويشقه شارع واسع يسمى (شارع مزوار).

جلسنا في مقهاة فيه على شارعه العام لشربِ الشايِ المغربي الأخضر المغمور بالنعناع المعطر، فكانت الجلسة طيبة، إذْ كان الهواء نسيماً منعشاً والمناظر غريبة.

وكثر منظر الصحراويات ذوات الأثواب الواسعة في الشارع ولكن لم يكن من اللائق أن يطلب غريب مثلي من واحدة منهن أن تقف أمامه ليصور ثيابها لأنها تظن أنه سيصورها هي، وذكر لي السائق ذلك وأن بعضهن لا يرين من اللائق أن تعرض صورهن على الناس ولا يفهمون الفرق بين السائح في هذا الأمر وغيره، ومع ذلك التقطت صورة على البعد لإحداهن.

المؤلف في شارع مزوار في حي الفتح في العيون

وليس في (حي الفتح) هذا أي عود أخضر من شجر أو حديقة أو نحو ذلك، فهو صحراوي حقاً، وعهده بالعراقة في الصحراوية قريب، لأن انشاءَه كان منذ وقت ليس بالبعيد.

وإذا كنت في الشارع الرئيسي فيه وهو شارع (مزوار) رأيت الصحراء التي يصب فيها الشارع دون أي حاجز للنظر يحجز عن رؤيتها.

وهي صحراء غبراء جافة مثل صحرائنا تماماً مع كون الهواء ندياً حانياً، ولكن ذلك كان بسبب تخلف المطر كما يقولون.

وفي المقهى لاحظت كثرة وجود الأطفال يبيعون علب الدخان ليس معهم غيرها، وذلك ظاهر من كثرة الذين يدخنون في هذه المقهاة مثل غيرها من المقاهي.

وبعد جلسة طيبة شربنا فيها ابريقاً من الشاي الأخضر المنعنع كفاني أنا والسائق دفعت ثمنه ثلاثة دراهم ونصفاً أي نحو ريال ونصف وهذا رخص متناه.

وقد آلمني هنا ما لاحظته في أماكن أخرى من المغرب شماله وجنوبه من كثرة الشبان الجالسين على المقاهي بدون عمل إلا التدخين وشرب الشاي أو القهوة.

أما الجعة وهي البيرة فإن العادة عندهم وأظنها أوامر رسمية مرعية أن لا يقدم ذلك لمن يكونون جالسين على المقهاة في الرصيف بحيث يراهم الناس وإنما يكون ذلك داخل باب المقهاة.

وتركنا المقهاة سائرين مع الشارع الرئيسي في (حي الفتح) ويسمونه (مزوار) كما سبق فحسن أمره عندما أمعنا في السير فيه إلى جهة المدينة، وكثرت الأبنية الجيدة فيه، ومنها بناء يرفرف عليه العلم المغربي الأحمر الذي تتوسطه النجمة وقد كتب عليه أنه فرع بلدية العيون الذي يخدم هذا الحي وما اتصل به، ورغم النفقة الكبيرة الظاهرة في هذا الشارع فإن الزفت فيه قد تكسر ولم يصلح مع أنه ذو أرصفة مبلطة جيدة.

حي مولاي رشيد:

أظهر ما فيه بيوت صفر الطلاء ذات طراز عربي ظاهر وتسمى هذه المنطقة من الحي التي دخلنا منها الشطر الأول من الحي يحده شارع مكة من جهة الجنوب، ولعلك تذكر أن شارع مكة هو طويل جداً كما شرحناه، وقالوا لي هنا إن طوله يبلغ ٨ كيلومترات، وهو أطول الشوارع وأحسنها في استقامته في مدينة العيون كلها.

شارع علال بن عبدالله:

بيوت ذات قباب في شارع علال بن عبدالله في مدينة العيون

لم نقف في حي مولاي رشيد إلا ريثما التقطنا صورة فيه فواصلنا السير إلى (شارع علال بن عبدالله) وفيه منازل قديمة ذات قباب في سطوحها، وهذه القباب من مادة قوية تظهر أنها من الفخار المعقود، وهو في حاشية الحي القديم من المدينة، ولذلك يقابلها مبنى قنصلية إسبانيا وينبغي أن نتذكر أن إسبانيا كانت تستعمر هذه الصحراء العربية المغربية، وتمتلك جزر الخالدات التي تسمى الآن بجزر الكناريا، وقد أصبحت إسبانية خالصة لأن سكانها من الإسبان، وقد زرتها قبل زيارة الصحراء المغربية هذه وكتبت عنها فصلاً في كتاب: (جولة في جزائر المحيط الأطلسي) يمكنك مراجعته إن شئت.

قنصلية إسبانيا في مدينة العيون

وتتميز قنصلية إسبانيا هذه بكونها مطلية بطلاء أحمر قانٍ، وبكونها تتألف من عدة أبنية متقابلة.

عين الساقية الحمراء:

وادي الساقية الحمراء الجاف الآن

و(عين الساقية الحمراء) هي إحدى عيون ثلاث كانت تسمى (عيون الساقية الحمراء) وكما سميت مدينة العيون هذه التي اسمها الرسمي (عيون الساقية الحمراء) على اسم العيون الثلاث.

وقد نضبت عينان منها وجف ماؤهما بل أصبحتا بمثابة غير الموجود.

تقع العين هذه على حافة الوادي وادي الساقية الحمراء في مكان مرتفع عن الوادي، بمعنى أن بطن الوادي منخفض عنها كثيراً ويظهر أنها تأتي من أماكن مرتفعة تقع إلى الغرب منها.

عندما وصلنا إلى العين وجدنا عندها طائفة من النساء والفتيات يغسلن وجوههن وأيديهن وذلك من مائها الذي ينقط من بين أكوام طبيعية من الحصا فحاولت أن أصل إلى ذلك الماء لأرى ما إذا كان في ملمسه شيء معين، لأنه ملح زعاف لا يصلح للشرب، وربما يضر بمن شربه إلا أنه معدني مجرب مشهور بنفعه للأمراض الجلدية، التي تصيب البشرة ويستعصي على الأدوية التي يصفها الأطباء معالجتها.

ولم استطع الوصول إلى الماء لكونه محاطاً بعدد منهن فتطوعت واحدة منهن جزاها الله خيراً كانت تصب الماء في قارورة كبيرة من التي تنقل فيها المياه الصحية بأن أخذت

تصب علي يدي وأنا أغسلها وأغسل وجهي مثلما رأيت النساء يفعلن، ولم أر معهن أحداً من الرجال، وإنما كان الرجال مبتعدين قليلاً، ومنهم عدد من الجنود بملابسهم العسكرية، ومصور معه آلته التي تلتقط وتصور فوراً.

ولم أحس لهذا الماء بأي أثر في يدي ووجهي، وربما كان ذلك لكوني لا أشكو من شيء فيها، ولله الحمد، ولكنني رأيت النساء والفتيات بل والصبيات الصغيرات يغسلن وجوههن وأيديهن من ذلك الماء القليل.

ويسيل الزائد منه على الأرض فهو قليل إلى بطن الوادي القريب وهو وادي الساقية الحمراء فيتفرق فيه وتنشفه الشمس غير أن مكان تجمعه قد كون منطقة بيضاء من الملح متميزة عن المناطق التي بجانبها، مما يدل على أن الماء ملحي بطبعه، بمعنى أن فيه أملاحاً ذائبة.

نساء وأطفال مزدحمين على ماء عين الساقية

وماء العين هذه إلى جانب كونه ملحاً فإنه ساخن وإن لم يبلغ إلى درجة أن يكون حاراً.

وغير بعيد من مسقط ماء العين هذه يوجد بناء حديث عربي الطراز جميل المنظر قد جلس حوله مئآت من الناس كالمنتظرين سألته عنه فذكروا أن الحكومة قد أقامت فيه حمامات منظمة لمن يريدون الاغتسال فيه في أماكن مستورة تشبه (دورات المياه) الصغيرة مقسمة للرجل والنساء من دون اختلاط، ولكن عدد هذه الحمامات قليل بالنسبة إلى كثرة

الناس الذين يريدون الاستحمام بمياه هذه العين من عيون الساقية الحمراء التي يعتقدون أنها تستطيع أن تشفي من الأمراض الجلدية ما لا تستطيع الأدوية الحديثة أن تؤثر فيه.

وقد رأيت من إقبال الناس على ماء هذا العين ما أكد ما ذكره لي السائق وأناس آخرون كانوا واقفين عندها من قوة اعتقاد الناس بتأثير مائها في شفاء بعض الأمراض.

الساقية الحمراء:

يحاولون الحصول على شيء من ماء عين الساقية في مدينة العيون

يسمى هذا الجزء من الوادي الكبير الذي تقع عليه مدينة العيون وبضاحيتها العيون التي سميت باسمها (الساقية الحمراء) وبعضهم يقول (وادي الساقية الحمراء) وهو واد صحراوي مهم، يأتي من جهة موريتانيا، وتصب فيه عدة أودية صحراوية، وبعد أن يمر بهذه المدينة مدينة العيون يستمر في سيره إلى نهايته حيث يصب في البحر المحيط الأعظم كما كان أسلافنا العرب يسمونه وهو (المحيط الأطلسي) عندنا الآن.

ولكن مدينة العيون لا تستفيد من مياهه عندما يمر بها لأنها مرتفعة عنه، وهو منخفض المجرى انخفاضاً شديداً، ولكنها تستفيد منه بعد أن يتجاوزها، وذلك أن القوم حفروا آباراً ارتوازية في مجراه قبل أن يصب في المحيط الأطلسي في مكان يسمى (فم الواد) سيأتي الكلام عليه فيما بعد إن شاء الله تعالى، وقد سحبوا مياه هذه الآبار بأنابيب كبيرة إلى مدينة

العيون يرفعونها بمضخات لأنها أعلى من منطقة الآبار وإن يكن علوها عليها ليس بالغاً.

وسمي الوادي بالساقية الحمراء لوجود تربة حمراء في مجراه، بل شديدة الاحمرار بالقرب من محاذاته لمدينة العيون، وقد صورتها ولا أدري أتكون صورتها واضحة.

ويشاهد المرء وهو في المدينة على بعد بُرْقةً وهي الرمل الناعم الذي يركب الجبال لا تبعد كثيراً عن مجرى الوادي الجاف في ضفته الشرقية، وهذا مايجعله شديد الشبه بالوديان الصحراوية الكبيرة عندنا.

وكانت لي وقفة جميلة غريبة على شفير الساقية الحمراء وبجانب هذه العين من عيون الساقية تطل علينا مدينة العيون عاصمة الصحراء المغربية الكبرى، وقد تواردت على ذهني أحداث التاريخ الحافل بالأمجاد الإسلامية من أيام المرابطين إلى أيام الموحدين والقائد العظيم يوسف ين تاشفين الذي أخر سقوط الأندلس بيد الإسبان قرنين أو أكثر من الزمان.

صحراوية بلباسها الفضفاض عند الساقية الحمراء

وإخواننا من البربر الذين قد يحلو لبعض الناس أن يجمعوهم على (برابرة) وما يجوز أن يكون جمعهم كذلك لأنهم أهل مدنية ودين، بل هم أهل الحمية والنخوة على مر السنين وهم الذين فتحوا الأندلس بقيادة القائد المسلم (طارق بن زياد) ولكنهم لم يفتحوها باسم البربر أو باسم العرب وإنما باسم الإسلام، لذلك بقي فتحهم لها ثمانية قرون، ولولا أن تخاذل الآخرين وتفرق ولاة المسلمين إلى شيع وأحزاب وجماعات وأصحاب تتبادل

الاقتتال والاحتراب، وتستعين بالعدو المتربص على المسلمين الخُلَّص لبقي هذا الفتح إلى ما شاء الله له أن يبقى، ولكن سنة الله في خلقه التي لا تتبدل ولا تتغير أن من أخذ بالأسباب ومنها الأسباب المعنوية الروحية والأسباب المادية لابد أن يفوز بالأصلاب (ولن تجد لسنة الله تبديلا).

طان طان:

تحيط بهذه الصحراء العربية المغربية مخاطر ومخاوف من زعانف قوم تابعين لأقوام آخرين، ولذلك فرضت السلطات الأمنية المغربية في عاصمتها إجراءات أمن مشددة فعلى جميع مخارجها مراكز للشرطة تعرف من يلج فيها ومن يخرج منها.

ولذلك عندما رأيت الخط الأسفلتي الجيد ينطلق من قلب مدينة العيون راكباً قنطرة وهذا هو اسم الجسر عندهم وكلا اللفظين صحيح فصيح، ثم ينطلق جهة الشرق مع ضفة الوادي الشرقية طلبت من السائق الأخ (الزناتي حسن) أن نذهب مع هذا الطريق الخارج من المدينة فتلكأ قليلاً ثم استجاب.

مع سائق الأجرة الزناتي حسن على شفير وادي الساقية

قطعنا القنطرة وانتقلنا بسرعة إلى الجهة الشرقية من الوادي وهي الجهة الشرقية أيضاً من المدينة لأن الوادي يأتي في هذه المنطقة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي.

فرأيت لافتة من لافتات الطريق كتب عليها ((طان طان) ٣٠٩ كيلومتر) باللغة العربية، وكنت سمعت بهذه البلدة من بلاد المغرب العربي ولكنني لم أعرف موقعها بالضبط.

وهي بمثابة المحطة في وسط الصحراء سألت السائق عن اسمها فلم يعرف اشتقاقه ولا سببه فهو اسم غريب لأن (طان) بناء غريب فكيف به إذا كرر، وقد سألت أحدهم بعد ذلك ويذكر أنه من أهل تلك المنطقة سألته وأنا في مدينة العيون عن سبب تسمية (طان طان) بهذا الاسم، فقال: إن فيها بئراً كانت تطن إذا ضربت اثناء الحفر وتكرر ذلك كلما تكرر الحفر، فسيمت بذلك (طان طان).

هكذا قال ولا أحق ذلك وقد يكون حمله على قوله أو قول من سمع ذلك منه أنه ليس للكلمة معنى في العربية معروف، مع العلم بأن سكان هذه المنطقة من الصحراء الأصلاء هم من العرب أو البربر الذين تعربوا وأقول: إنه إذا لم يكن قوله صحيحاً فإنه ربما كان للتسمية معنى في اللغة البربرية التي كانت سائدة في المنطقة قبل أن تحل العربية محلها فيها.

وقد وقفت على الضفة الشرقية من ضفة (الساقية الحمراء) بقرب قلعة حصينة عالية للجيش كتب علي واجهتها بالعربية وحدها: (الله، الوطن، الملك).

المؤلف عند الضفة الشرقية للساقية الحمراء عند الطريق الذاهب إلى طان طان

ومن هنا يرى المرء القسم القديم من مدينة العيون وهو الذي بني أكثره في العهد الإسباني وإن كان لا يمثل الآن إلا جزءاً قليلاً من المدينة بالنسبة إلى ما بني منها في العهد

المغربي الذي ازدهرت فيه وعرفت من المشروعات ومن الإنفاق الحكومي فيه ما لم تعرف مقارباً له من قبل.

وغير بعيد من الضفة الشرقية توجد بوابة رمزية من بوابات المدينة، والبوابة الرمزية هي التي لا تغلق شيئاً إلا ما يمر بداخلها فليس بجانبها حيطان تتصل بها، وعند هذه البوابة الموضوعة على الطريق الأسفلتي يوجد عدد من الجنود رأيتهم يدققون في هويات الركاب ويتفحصون أوراقهم، فلم أشأ أن أحرج سائق السيارة بالمرور من عندهم، مع أنني قررت أن أذهب إلى الميناء غداً وهو الواقع على المحيط الأطلسي وبينه وبين مدينة العيون ٢٧ كيلومتراً، ومن هناك ستتاح لي رؤية الأرض الخالية من الصحراء أو لنقل إنها الصحراء الخالية من البنيان.

حي سوق الزجاج:

عدنا إلى المدينة فاخترقنا حيّاً من الأحياء القديمة الجيدة يسمى (حي سوق الزجاج) بيوته ذات طراز قديم معتاد يميل إلى الطراز العربي غير الملتزم أي إنها ليست بذات طراز عربي أصيل كالطراز الأندلسي المعروف في منطقة المغرب العربي، ولكنها فيها ملامح أو بقايا منه.

وشوارع هذا الحي كلها مفروشة بالأسفلت، وليست للبيوت مقدمات، بل كلها تشرع إلى الشارع، ولذلك ليس فيه تشجير، وإنما توجد حديقة صغيرة في وسطه أكثر ما فيها أشجار نخيل الزينة.

شارع في مدينة العيون

شارع محمد الخامس:

وقفنا في شارع جيد إلا أنه ليس طويلاً ولا واسعاً، وإن كان واقعاً في المنطقة الجيدة من المدينة القديمة ويسمى (شارع محمد الخامس) وهو الملك محمد الخامس والد الملك الحالي الحسن الثاني والملك محمد الخامس هو الذي قادالمغرب الشقيق إلى الاستقلال كما هو معروف.

وعلى هذا الشارع مبانٍ مهمة جداً منها البلدية على جهة اليمين حيث دخلناه من جهة الشمال وتقابلها على اليسار أي الشرق (العمالة) وهي مقر العامل على الناحية، وهو بمثابة أمير المنطقة أو الجهة عندنا وبمثابة محافظ المحافظة في بعض البلدان العربية، (عامل الملك) على كذا.

ومبنى العمالة ذو طابع صحراوي كامل من حيث الطلاء فهو مطلي بلون أصفر باهت كلون رمال الصحراء، وعلى الشارع أيضاً (مبنى الأمن الوطني) وهو يقابل الأمن العام عندنا ومبناه أصفر الطلاء أيضاً، وفوق مبنى الأمن الوطني علم أحمر كبير وهو العلم المغربي.

وتقع إلى هذه المباني المهمة من جهة العرب تلة عالية غرسوا عليها حديثاً أشجاراً أكثرها من نخيل الزيت، ويتربع فوقها مبنى ضخم ذو طراز عربي أصفر الطلاء أيضاً، وهو مبنى شركة الفوسفات الذي هو المعدن الشهير يصدر منه خارج المغرب مقادير كبيرة تحملها السفن من ميناء العيون حيث تنقل الفوسفات سيور عريضة ضخمة (جنازير) من منطقة (أبو كراع) على مسافة مائة كيلومتر وما بعدها إلى ميناء العيون على المحيط في حركة دائبة لا تتوقف في ليل أو نهار.

في الحديقة:

المؤلف مع السيارة التي استأجرها قرب القصر الملكي في مدينة العيون

صعدنا طرف التلة التي يقع في طرفها البعيد مبنى شركة الفوسفات فوصلنا إلى حديقة جميلة جداً، هكذا يسمونها الحديقة بدون تعريف آخر وهي في الحقيقة أشبه بالميدان الواسع الجميل الذي لم تدخر الحكومة شيئاً في الإنفاق عليه فهو مرصف بأرصفة فاخرة وأرضه مرصوفة ببلاط غالٍ جميل، وقد غرست فيه أشجار من أشجار الظل لكنها لم تصبح ذات ظل وارف بعد، وهو من مكانه المرتفع يطل على مدينة العيون التي تقع على شفير وادي الساقية الحمراء أي القسم القديم منها ويرى منه الوادي وما بعده من الصحراء الجرداء ذات البرقة وهي الرمال التي تركب الأراضي الصخرية.

هذا من جهة الشرق اما من جهة الجنوب فإنه يقابل قصراً أندلسي الطراز، جميل المنظر يسمونه (قصر المؤتمرات) وهو الذي ينزل فيه الملك الحسن الثاني إذا جاء إلى مدينة العيون.

وقد جملت المنطقة كلها بالبلاط الفاخر والأنوار المتعددة وشوارعها مستقيمة، إلا أن المنطقة نفسها ليست واسعة.

في منطقة القصر الملكي في مدينة العيون

وقد طاب لي أن ألتقط صورة للقصر الذي أمامي الذي يسمونه (قصر المؤتمرات) فالتقطت له وما حوله وإذا بشرطي لم نفطن إليه من قبل لكونه بعيداً عنا ينادي على أحد المارة الذي كان يسير قريباً منه قائلاً له: ناد سائق (التاكسي) فعرفت أن ذلك لأمر فذهبت مع السائق إلى الشرطي فكان أول ما فعله أن صافحنا أنا والسائق، وقال: ممنوع التصوير هنا، فقلت له: إنني سائح عربي لم أعلم بأن التصوير ممنوع، وأنا آسف على ذلك فقال للسائق: وأنت ألا تعرف أن التصوير ممنوع؟ فقال: لا، فقال بلطف: تقدرون تروحون.

وهذا مثال على لطف المغاربة، لأننا في الحقيقة لم نعلم بأنه يمنع التصوير هنا، والمراد به تصوير القصر، ولا ما يدل على ذلك، وكأنهم اعتمدوا على الشرطي الحارس بأن يبلغ الناس من قبل أن لا يلتقطوا الصورة ولكن فاته ذلك.

بوابة المدينة:

بوابة المدينة في مدينة العيون

هكذا يسمونها (بوابة المدينة) بدون وصف مع أنها تقع في غرب المدينة منفصلة عنها وأن هناك بوابة أخرى في شرق المدينة ذكرتها من قبل، إلا أنها يفصل بينها وبين المدينة (وادي الساقية الحمراء)، وهذه البوابة رمزية يعني أنه لا يمتد منها جدار أو حائط ملاصق لها يمنع من يريد المرور من غير بابها.

وهثل هذه البوابات الرمزية موجودة بكثرة الآن في الآثار التي خلفها ملوك المغول في الهند يجعلون تلك البوابات رمزية تدل على بدء منطقة من المناطق، ولكنها لا تمنع من يريد أن يدخل إلى المنطقة من دون أن يدخل مع تلك البوابة، وإنما تكون البوابة منفردة وحدها ليس يمينها ولا يسارها بناء آخر.

عطبان لا عطلان:

عدت إلى الفندق وذهبت للغرفة للاستراحة قبل غروب الشمس بقليل، فقال لي موظف في مكتب الاستقبال في الفندق صغير المرتبة لم أره من قبل وهو يشير إلى الدرج كلاماً لم أفهمه بسرعة وإنما فهمت فحواه وهي أنه لا يمكنني الصعود في المصعد فقلت له: هو عطلان؟ فلم يفهم، فقلت: المصعد خربان؟ فلم يفهم أيضاً، ولم أفهم مراده حتى قال

لي: المصعد عطبان، بْقا في الدور الرابع، أي أصابه عطب وهذا هو قوله (عطبان) وهي عربية فصيحة مثل خربان، ومثل الكلمة العامية المستعملة في العامية عطلان، أما (بْقا) بإسكان الباء وفتح القاف فإنها هي كلمة (بَقى) الفصحى وهذه العامية المغربية التي نسمعها من المغاربة كثيراً عندما يقول: انا نبقا في مكان كذا أي نحن نبقى في كذا.

وهذا يؤكد ما قلته من قبل لإخواني الذين يستغربون اللهجة المغربية حينما تقرع أسماعهم لأول مرة ويظنون أن الكلمات التي يسمعونها منها غير عربية، فأقول لهم: إنها عربية ولكنها كلمات لا نستعملها نحن في عاميتنا وأحياناً ولا في فصيحتنا التي تعودنا على الكتابة في الصحف والمجلات بها، وهذا بطبيعة الحال لا يمس عروبة تلك الكلمات، وإنما ذلك راجع إلى سعة اللغة العربية، وغناها بالألفاظ والتعبيرات المترادفة أو المتقاربة.

أذكر أنني دخلت مطعماً في باريس لأحد الإخوة العرب من شمال إفريقية لا أدري أهو من الجزائر أم المغرب، وأما تونس فإنه ليس منها فسألته قائلاً: عندكم كسكسو في المساء؟ فقال: آش تقول؟ فقلت له: هنا يوجد عندكم في المسا كسكسو؟ فلم يفهم كلامي حتى قال زميل له في المحل كان بعيداً عنا يخاطبه يقول لك: كاين كسكسو عشية؟ ففهم، وقال: نعم، كاين، لأنهم استعاضوا عن كلمة فيه الظرفية الظاهرة في الفصحى بكلمة (كاين) المضمرة المقدرة فيها فأظهروها واستعملوا كلمة عشية بديلة من كملة (مساء).

و هذا المساء:

ومضى هذا المساء في موضعين أحدهما: شارع القيروان وهو شارع معتاد ضيق لا يتطابق مع اسمه الرنان، وذهابي إليه من أجل أن أبحث عن أي كتاب في تاريخ هذه المنطقة في مكتبة الإرشاد التي تقع عليه ولكنني لم أجد أي كتاب يتعلق بهذا الموضوع، وإنماوجدت كتاباً عن الشعر الحساني- نسبة إلى اللغة الحسانية المنسوبة إلى بني حسان- وهم العرب الموجودون في موريتانيا وفي هذه الصحراء.

مقر بلدية مدينة العيون

وقد قرأت الكتاب فاعجبت بالعرض الجيد الذي قدمه مؤلف الكتاب سواء لدراسته أو للدراسة نفسها عن الشعر الحساني، إلا أنني لاحظت عليه أنه يكتب هذا الشعر كتابة عروضية، أي كأنما هو يقصد بها أن يجعله يتناسب مع عروض الشعر، وذلك بخلاف الطريقة التي اتبعتها في تسجيل الشعر العامي النجدي في كتبي المطبوعة ومنها (معجم بلاد القصيم) الذي يقع في ستة مجلدات (الأمثال العامية في نجد) وهو في خمسة مجلدات وغيرهما من الكتب المخطوطة، وذلك أنني رأيت أن أكتب الشعر العامي كتابة إملائية بمعنى أن يكون رسمه مطابقاً للرسم المتعارف عليه في الشعر الفصيح أو مقارباً له فعلى سبيل المثال تكتب (محمد) هكذا في الشعر الفصيح من دون أن تذكر الضمة التي على الميم إذا كان النص مشكلاً- بتشديد الكاف- وباللغة العامية اكتبها كذلك (محمد) وإذا احتاج الأمر إلى الشكل وضعت على الميم الأول سكوناً علامة على أن الميم فيها ساكنة.

أما الكتابة العروضية الموجودة عند صاحب هذا الكتاب وغيره من الذين سلكوا الطريقة نفسها فإنهم يكتبونها (امحمد) باثبات ألف قبلها.

والأمثلة على هذا كثيرة متعددة وليس هذا موضع شرحها، وقد شرحتها بتوسع في مقدمة كتابي: (معجم الألفاظ العامية) الذي يقع في مجلدات عديدة ولا يزال مخطوطاً.

ومثل ذلك القول في الحروف فأكثر العامة في ابلدان العربية ينطقون (القاف) كما ينطق

بها المصريون في القاهرة وما حولها بالجيم، وتسمى (الجيم المصرية) وهذه لهجة قديمة للعرب بحيث اسموا هذه القاف (قاف مضر) بخلاف القاف القرشية التي ينطق بها كما ينطق بحرف القاف الآن في قراءة القرآن الكريم على قراءة حفص.

وقد واجهت أسلافنا الأوائل هذه المشكلة مشكلة كتابة هذه القاف فكتبوها كالكاف القرشية لأنها هي في كل شيء ما عدا طريقة النطق وهي حلت محل القاف القرشية في كل شيء.

وقد جاء كاتبو الكتابات العروضية في الشعر العامي ومنهم صاحب هذا الكتاب فكتبوا القاف المضرية كافاً فوقها خط، وبذلك أبعدوها عن الكتابة العربية التي كانت تكتب بها مع علمهم بأنه لا توجد لدى العامة قاف قرآنية صحيحة، وإنما استعاضوا بقافهم هذه التي هي قاف مضر، أو جيم مصر عنها.

فمثلاً كلمة (قليل) اكتبها في جميع مؤلفاتي عندما أكتب الألفاظ العامية من أشعار وأمثال ومأثورات شعبية هكذا (قليل) كما تكتب في الفصحى والآخرون يكتبونها هكذا (كليل) وبهذا ابعدت عن رسم الكلمة المتعارف عليه (قليل) الذي يدل على القليل: ضد الكثير، والغت حرف القاف منها الذي هو حرف عربي أصيل.

والموضع الثاني الذي قضيت جزءاً من هذا المساء فيه هو (ساحة دشيرة) التي يقع عليها فندقي بعد أن أنفقت بعض الوقت في التسكع و(الدروشة) في المنطقة والتسكع أو الدروشة هي من الأمور المحببة للسائح المتطلع للمعلومات على طبيعتها أو الذي يريد أن يرى الأشياء كما هي في الواقع من دون تحسين أو تقبيح.

ومما تيقنته ما عرفته من قبل من طيب معاملة الإخوة المغاربة للغريب، وحسن خلقهم معه، فلا أحد يؤذيه أو يطمع فيما معه من مال، أو حتى يسمعه كلمة في غير موضعها.

الوضع في مدينة العيون:

وخلاصة الجولة في مدينة العيون أمس واليوم أنها مدينة هادية هدوء بقية المدن المغربية ليس فيها أي أثر لاضطراب أو خوف فضلاً عن القلاقل أو عدم الأمن، وما يقوله مرتزقة ما يسمى بالبوليساريو من أنها محتلة من المغرب، وأنهم يقومون بأعمال يسمونها بطولية لمقاومة احتلال المغرب هو هراء في هراء.

ولو تأمل المرء الأمر بعقل وتروٍّ لعرف أنه لا يمكن للسكان أن يقوموا بما يذكرون وهم في ظل د ولة عريقة مسلمة أقوى من دعوتهم التي يدعون إليها وهي الجمهورية العربية

الصحراوية الديمقراطية، وهي حكومة المغرب التي قامت بإنجازات في مدينة العيون هذه خلال سنوات لم يقعل المستعمرون الإسبان عشر معشارها في عشرات السنين.

كما أن العربي المحايد مثلي- يرى أن دعوة البوليساريو هذه هي دعوة لتفتيت العرب وزيادة شرذمتهم إذْ ما الفائدة من إنشاء دويلة قليلة السكان، ضعيفة القدرة على النهوض والرقي سواء بالنسبة لأهل الصحراء أو بالنسبة إلى المغرب أو إلى العالم العربي بأجمعه.

ونحن لا زلنا نشكو من وجود دويلات عربية صارت مهزلة المهازل وموضع تندر العالم كأنما عناها ابن رشيق وعنى حكامها الذين يتشبهون بالحكام الكبار في قوله:

مما يزهدني في أرضِ أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
أسماء مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

ولو ذهبنا إلى قول (البوليساريو) من أنه يجب أن يقرر شعب الصحراء مصيره لكان معنى ذلك أنه يجب أن يعطى حق تقرير المصير للأقاليم التي يتألف منها المغرب أيضاً وغيره، بل لقلنا: إن أقاليم الصحراء ينبغي أن تتاح لها أن تقرر مصيرها وقد يختار بعضها أن ينضم إلى المغرب وبعضها الآخر يريد أن يستقل وربما يريد بعضها أن ينضم إلى الجزائر وموريتانيا وهكذا.

ونحن نقول لهؤلاء الداعين إلى التفتيت والتصغير في زمن نحن أحوج ما نكون فيه إلى الالتحام والتكبير أنه لو كان لنا وأمثالنا من الأمر شيء لجعلنا المغرب بما فيه الصحراء والجزائر وموريتانيا كلها في دولة واحدة فذلك أرفع لشأنها و أنفع لسكانها، وفيه عز العرب والمسلمين، لكونهم صاروا- على سبيل الافتراض- يعيشون في دولة عربية مسلمة كبيرة لا يستطيع أحد أن يضغط عليها بسهولة ولا يمكن لطامع فيها أن يفكر بالطمع.

هذا وقد بدأ الجو يبرد عند الغروب حتى غدا برده بعد أن غربت الشمس بالنسبة لمن يلبس لباساً خفيفاً هو الذي كان يلبسه في أثناء الضحى أو في منتصف النهار محسوساً، ولكنني قد لبست صدرياً جيداً استعداداً للبرد، ورأيت بعض الناس استعدوا أيضاً لمثل ذلك أو شبيه به.

وأما الذين يلبسون اللباس الصحراوي الفضفاض من رجال ونساء فهو يخفي ما تحته من الثياب الجيدة إذا جمع على الجسم وضم إليه باليد، أما إذا ترك على سجيته يطير به الهواء وتسحب أذياله على الأرض فإنه يحلق حول الجسم، ويبدو كأنما يريد أن يفر منه، وهذا بلا شك مزية له في هذه الصحراء الباردة الحارة لأنه ينقشع عن الجسم عند الحاجة إلى التبرد وينضم إليه عند الإمساك به في حالة التدفء.

يوم السبت ١٤١٣/١٢/١٥هـ:

إلى صحراء الصحراء:

الصحراء عند بني قومنا من الأعراب هي الأرض المستوية الخالية من العمارة البعيدة عن البنيان التي ليس فيها ما يواريك من جبل أو شجر او وادٍ عميق، ولم يشترطوا كونها لا ينزل عليها المطر لأن بلادهم هي كذلك لا ينزل عليها المطر إلا لماماً، ولا تعرف المواسم المطيرة فيها المطر ويستمر إذا جاء أياماً أو ليالي متتابعة، أو شبه متتابعة.

أما الصحراء في اصطلاح المتأخرين من بني قومنا وغيرهم من الناس فإنها الأرض الجافة، الجدباء لا ينزل عليها المطر بانتظام، وإذا نزل يكون نزوله غير منتظم وفي أوقات متباعدة.

وهذه هي صفة الصحراء العالمية كما تعرف الآن، وقد قدرت لي زيارة صحارى العالم الكبرى والصغرى من صحراء إفريقية الكبرى التي تعتبر هذه الصحراء المغربية جزءاً منها إلى صحرائها الصغرى في جنوبها الغربي (كالاهاري) الواقعة الآن في أراضي دولتين من دول تلك المنطقة هي (بتسوانا) و(ناميبيا) إلى صحراء (قوبي) في الصين ومنغوليا، بل إلى منغوليا نفسها التي هي صحراء قاحلة، إلا ما كان من مطر يغشى شمال البلاد في فصل الصيف ومن ثلج يرين عليها في الشتاء.

وقد أحببت اليوم أن أرى صحراء هذه الصحراء المغربية، وهي البعيدة عن العمارة، والخالية من النبات فاستأجرت سيارة أجرة من أخ اسمه (الزناتي مختار) وهو من قبيلة العمران التي ترجع إلى أصل بربري، ويقطن أهله إلى الشمال من هذه المنطقة.

سنزور في هذه الجولة ميناء العيون على بعد ٢٧ كيلومتراً من المدينة، ثم نذهب جهة الشمال منه إلى شاطئ بحري سمي (ميرامار) أي نظر البحر باللغة الإسبانية والمراد به المحيط الأطلسي، ثم نعرج شرقاً إلى (فم الواد) حيث الآبار الأرتوازية التي تغذي المدينة بالمياه، وتسقي منها بعض البساتين تزرع خضرات تمون المدينة بما ينتج منها، هذا هو اسمها الذي تعرفها به العامة من أهل البلاد.

لدى ضابط الشرطة:

أوقفنا حاجز للشرطة خارج المدينة وطلب مني بطاقة اثبات الضخصية فقلت له: إن جوازي في الفندق، ولكن معي تذكرة السفر وكنت حجزت من مكتب مؤسسة الطيران المغربية في صباح هذا اليوم وما تزال معي، فطلب مني أن أصحبه إلى داخل مكتبه وهو

غرفة واحدة فيها هاتف وأخذ يتكلم فيه مع المكتب الرئيسي للشرطة، وقال السائق إنه يتكلم مع رئيسه الكبير ولم يكن الكلام بغير العربية، فقال له الضابط: خذ البيانات منه ودعه، فكتب البيانات المعتادة عن اسمي ولقبي وعملي وسني من دون أن أوقع على شيء منها مثلما فعل ضابط الجوازات في المطار عند الوصول إلى مطار العيون.

الرمال على الطريق في صحراء الصحراء

كان أول ما فوجئت به عندما سرنا من عند الضابط قاصدين ميناء العيون على المحيط الأطلسي أن لاحت كثبان حمر كأنها الذهب الوهاج في الأفق غير البعيد، وتمنيت أن أذهب إليها رغم علمي بصعوبة ذلك واستحالته على سيارة الأجرة الصغيرة المهملة التي أركبها فسرنا مع خط اسفلتي جيد، وقال السائق سترى الرمل وأنت على السيارة ورأيت الرمل بالفعل لا على جانبي الطريق وإنما ركب الطريق وجرافة ضخمة تبعده عن الطريق.

ورأيتهم عملوا شيئاً لصد الرمال وهو بناء كالجدار المنحني من الأسمنت المسلح المكلف يكون في أسفله خروق وقد وضعوه على الجهة اليمنى من الطريق لمن يتجه إلى الميناء والجهة الشرقية من الخط، وذلك من أجل أن تندفع الرياح الشمالية الشرقية منه بقوة لكونها تدخل من خروق محصورة فتطير ما وقع من الرمل على الطريق.

المؤلف بجانب أحد الأبنية لصد الرمل الزاحف على الطريق بين الأطلسي ومدينة العيون

وهذا الجدار مكلف متعب ومن الصعب أن يبنى على الطريق كله، ولذلك رأيتهم أقاموه على منطقة خاصة من الطريق وتركوا الباقي بدونه فركبه الرمل الذي رأيت الجرافة الضخمة تزيله الآن.

وتذكرت أننا في بلادنا الرملية كالقصيم والمنطقة الشرقية نبني الطرق بطريقة فنية أكثر من فعلهم هذا لأنهم بنوه كما يبنى الطريق المعتاد أي لم يرفعوه عن الأرض، فكانت الرمال التي تذروها الرياح تركبه بسهولة أما نحن فاننانرفع الطريق فيصعب على الرمال القليلة أن تركبه وإنما تتجمع أسفل منه فتأتي رياح معاكسة فتبعدها، وإذا كانت هناك ضرورة لمرور الطريق المرتفع بموضع عالٍ من الرمل بنيناه على جانب ذلك المرتفع ووضعنا بجانبه حاجزاً من مربعات ضخمة من الشباك الحديدية المملؤة بالأسمنت التي يركب بعضها بعضاً ونرفعها حتى لا يستطيع الرمل ان يتسورها.

هذا ما فعلناه وهي طريقة ناجحة إلا أنها مكلفة ولذلك رأيت القوم في الصين الشعبية قد فعلوا شيئاً لوقف سفو الرمال على مجرى النهر الأصفر في صحراء الشمال الغربي من الصين، وفي مقاطعة كانسو التي عاصمتها مدينة لانجو، وهذه الرمال واقعة ما بينها وبين مقاطعة نن تشا فكانوا عملوا بمعونة من الأمم المتحدة مصدات للرياح أشبه ما تكون بالشباك من أعواد الشجر المربوط بعضها ببعض بطريقة محكمة بحيث يكون صف منها دون صف

وهكذا فلا يستطيع السافي من الرمل أن يتخللها كلها فيقف.

وهذه طريقة ناجحة إلا انها مفيدة في المساحات المحدودة وليس في المساحات الواسعة، وفي موريتانيا رأيتهم وضعوا ما يشبه جدران الحصائر من السعف والجريد ولكنها لم تنفع في رد الرمال.

هذا والصحراء هنا خالية من الأعشاب تماماً ومن الشجر الكبير، وإنما رأيت فيها أشجاراً من الأشجار الصحراوية شبه الجافة من التي لا ترتفع عن الأرض تشبه الرمث وليست به.

المؤلف عند الرمال الزاحفة في صحراء العيون

وكلما سرنا مع الطريق زاد سفي الرمال مع أن الرمل لا يؤلف كثباناً عالية كما هي عليه الحال عندنا في القصيم على سبيل المثال، وإنما هو تجمعات من الرمال السافية وهي الدقيقة المتنقلة.

ثم وصلنا إلى منطقة أخرى بعد ذلك رأيتهم غرسوا فيها شجراً أصبح أخضر وإن لم يرتفع، وقد عجبت من وجوده هنا أخضر مع أنه لا يسقى فيما يظهر من أمره لأن الرمل قد ركبه وقال السائق وهو من الذين يترددون ما بين الميناء ومدينة العيون لا عمل له غير ذلك ويعرف المنطقة: إنهم يسقونه ما دام صغيراً ثم يستغني عن السقي بعد ذلك.

الطرفاء:

الرمل يهدد الطريق الذاهب للمحيط الأطلسي وسائق سيارة الأجرة واقف عند سيارته

لم أعرف هذا الشجر والسيارة تسير فأوقفت السيارة ونزلت أتفحصه فإذا به شجر الطرفاء الذي نعرفه ولا نشك فيه، وقال السائق عجلاً: إننا نحن نسميه الطرفاء لا اسم له عندنا غير ذلك، وقد ظننت أنك لا تعرفه باسمه الطرفاء لأنني تخيلت أن (الطرفاء) اسم محلي له عندنا لا يعرف عند غيرنا به.

وذكرت أوصافه وكيف ينبت في أول الأمر وأنه ينبت في الأرض الملحة شرط أن يكون فيها ندى كافٍ، فقال: هذا الذي نعرفه ولذلك يكثر عندنا في أطراف السباخ هكذا ذكرها بلغته.

وتخيلت أن هذه الطرفاء نبتت ولم تمت لكونهم كانوا يغرسونها في الأرض قبل سفو الرمال والأرض فيها ماء ملح لقربها من البحر، إضافة إلى ما يحصل عليه من الذي ينبعث من البحر بسبب التبخير.

المؤلف بين أشجار الطرفاء في صحراء الصحراء

وهو شجر صحراوي يقنع من الماء باليسير ولا يبعد البحر وهو المحيط الأطلسي عن هذه المنطقة التي غرسوا فيها أشجار الطرفاء من أجل تثبيت الرمال إلاّ عشرة كيلومترات، ولكن الطريق لا يذهب إلى القصد ما بين البحر والمنطقة وإنما يبعد قليلاً جهة الشمال الغربي طلباً لسهولة الأرض وليقترب من (فم الواد) الآني ذكره.

ورأيت ما يدل على أن الصحراويين لا يتركون عادة في الإسراع في قيادة السيارات وذلك لكون الصحراء تغري بذلك، فالطريق يكون مفتوحاً بدون عوائق والسائق يرى ما حوله إلى مسافات بعيدة، ولذلك كتبوا بالعربية وحدها اللافتة الشهيرة التالية: لا تسرع يا أبي فإنني في انتظارك.

مرفأ العيون:

وصلنا الميناء وقد أصبح اسمه الرسمي الآن (مرفأة العيون) وإضافته هي إلى مدينة العيون عاصمة الصحراء هذه وليس إلى عيون فيه أو حوله.

وقد كثرت الأشجار الصحراوية اللأطئة بالأرض قبيل الوصول إليه، وتنحت الرمال عن النظر، ودخلنا بلدة المرفأ ويسميها صاحبنا القرية وهي قرية بالفعل ولكن عملها التجاري أكبر من عدد سكانها فقد وجدنا فيها سوقاً تجارياً كثير الحوانيت، ولكننا واصلنا السير إلى

قرب البحر الذي رأينا على بوابته وهي بوابة الميناء جندياً يتحقق من هويات الداخلين إليه، وهذا أمر مفهوم السبب وهو التخوف من الإرهاب والتخريب الذي قد يتعرض له هذا الميناء المهم الذي هو الثغر الباسم لهذه المنطقة الصحراوية.

ويزيد من أهميته أنه الميناء الذي تصدر منه مقادير كبيرة من الفوسفات الذي هو السلعة الرئيسية التي تصدرها الصحراء في الوقت الحاضر.

ويقع ميناء تصدير الفوسفات إلى الجنوب من المرفأ، وهو يستقبل الفوسفات الذي يأتي إليه من مناجم الفوسفات وتبعد حوالي ١٢٠ كيلومتراً عن الميناء وتنقله إليه أشرطة حديدية ضخمة جنازير- جمع جنزير- في حركة دائبة لا تهدأ طيلة الساعات الأربع والعشرين.

والعناية ببلدة المرفأ التي يسميها بعضهم الميناء وبعضهم يجعلها قرية وهي صغيرة ليست عناية بالغة فشوارعها واسعة، ولكن ليس فيها من صفات الشوارع الحسنة إلا هذه السعة فالأسفلت الموجود على جانب ضيق منها وبقية الشارع بقي ترابياً، ولا توجد فيها أرصفة، وذلك لسعة المساحات ما بينها وبين الجزء المزفت من الطريق، وبعض هذه الشوارع قد ركبته الرمال السافية، مثل بعض البيوت إلى مسافة ظاهرة تبلغ في بعض الأحيان قرابة المتر، ولكن ليس معنى ذلك أن الرمال قد غطته، وإنما معناه، أنها ركبته من جهة من جهاته إلى ما يقرب من ذلك الارتفاع.

ويكثر فيها الذين يرتدون اللباس الصحراوي العريق ربما كان ذلك لكون الجو فيها صحراوياً أكثر منه في مدينة العيون بدليل كثرة الرياح السافية فيها، فرأيت بعض الناس الذين يظهر أنهم من البدو في الأصل وقد غطوا رؤسهم وأكثر وجوههم بأغطية سوداء تماماً، وبعض النساء اللاتي يرتدين اللباس الصحراوي الفضفاض وهو الذي يكون فوق اللباس المعتاد وهن بهذا يشبهن (الشنقيطيات) اللاتي كنا نراهن في السابق في مكة المكرمة والمدينة المنورة يسميهن الناس كلهن شنقيطيات جهلاً منهم بسعة بلاد الصحراء وأنها ليست كلها من بلاد شنقيط، إذْ بعض تلك النسوة اللاتي كن في مكة والمدينة لسن من أهل شنقيط التي هي الآن في موريتانيا، وإنما هن من أهل مالي من الطوارق المعروفين، و مع ذلك يسميهن الناس هناك بالشنقيطيات لكونهم عرفوا الشنقيطيات من قبل، وهن يلبسن في الشارع لباساً يشبه هذا اللباس الصحراوي الفضفاض.

ومن أجمل ما في هذه القرية مسجدها بطلائه الأبيض الناصع البياض وصومعته المربعة، وجمال مظهره هنا نسبي فهو لا يداني الجوامع الجميلة في مدينة العيون كجامع مولاي عبدالعزيز.

وإنما مبناه جميل بالنسبة إلى المباني في هذه البلدة غير الفاخرة.

ومن الطريف أن الشارع الطويل فيها الذي عليه المسجد رأيت فيه عدداً من الماعز الأبيض يتجول ولا أدري عن أي شيء يبحث في هذا الشارع، وظني أن أهله يرسلونه لكي يرعى من الأشجار الصحراوية اللاصقة بالأرض خارج القرية أو من فضلات الأغذية أو الخضرات وقشور الفاكهةأو الفاكهة التي تتضرر بالنقل في الميناء لأنني رأيت بعد ذلك أعداداً أخرى من الماعز السائب في شوارع القرية.

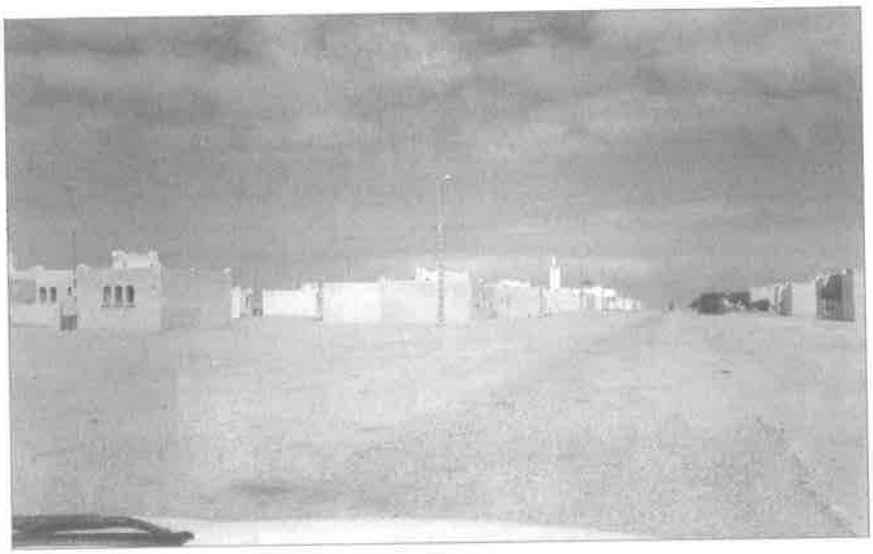

جانب من قرية الميناء على المحيط الأطلسي

وليس في هذه القرية عود أخضر رغم أنها واقعة تماماً على المحيط الأطلسي العظيم الذي لو كان الأمر قياساً لكانت كثيرة الأمطار لما تثيره الشمس الحارة من أبخرة، ولكن يظهر أن ذلك راجع إلى كونها واقعة داخل الحزام الصحراوي الجوي الذي غاضبه المطر، وهجره الغيث على طول هذا الحزام حول العالم أو حول أكثر العالم، والإستثناء فيه يكون بسبب ظروف جغرافية محلية كوجود جبال عالية على البحر مباشرة بحيث تمسك بالأبخرة فلا تتبدد في رمال الصحارى، أو تضيع في السهول الداخلية الواسعة.

ومن الجميل أنهم أقاموا نصباً في مدخل هذا الشارع من جهة الشمال كتبوا عليه بالعربية وحدها: (الله، الوطن، الملك) وأن في نهايته من جهة الجنوب مقادير كبيرة من الخرسانة الجاهزة على هيئة ألواح ضخمة صنعت في مصنع هناك وهو الذي يصب هذه

الألواح الضخمة وغيرها من الخرسانة التي يصنعها من الأسمنت والحصباء والحديد كما هو معروف.

ولاحظنا أنه رغم التعمير الذي حصل في الميناء منذ أن عادت الصحراء الغربية إلى المغرب فإن التوسع والتحسين لا يزال جارياً فيه، وقال لي السائق (الزناتي مختار) عند ذلك: المغرب يدفع (فلوس) كثيرة والأسبان يقبضون الفلوس من الصحراء ولا يدفعون.

وقفة في سوق المرفأ:

وقفنا في السوق ورأيت امرأة بدينة من سكان الصحراء بدليل أنها ترتدي ملابس واسعة وهي تفتح حانوتها (دكانها) غير مغطية وجهها على عادتهن كلهن، ولكنها متسترة فيما عدا ذلك، إذْ التستر والاحتشام هو الغالب على نساء هذه المنطقة، على اختلاف بينهن في الملابس سعة وضيقاً وطولاً وقصراً.

سوق قرية الميناء على المحيط الأطلسي

ولم أجد في هذا السوق الذي بني على هيئة مربع مستطيل جهته الرابعة وهي الشمالية مفتوحة تماماً وليس فيها شيء من الحوانيت، وأما الجهات الأخرى فإنها كلها مشغولة بحوانيت متلاصقة إلا أنها في هذا السوق أكثرها مغلق بسبب عطلة العيد كما قالوا.

ولاحظت أن الرمل السافي وهو الدقيق- كما قدمت- يملأ جوانب السوق حتى يكاد

يدخل في الحوانيت وهي (الدكاكين).

ويتقدم الحوانيت في السوق رواق مستطيل يشملها كلها وهو ضروري لحماية المتسوقين من الشمس ومن الرمال ومنظره مما أعاد إلى ذاكراتي صورة الأسواق القديمة في مدننا الرئيسية قبل عشرات السنين إذْ كانت تتألف من حوانيت صغيرة متلاصقة تتقدمها أروقة معتادة، بل رثة مثل هذا ليس فيها أقواس.

المؤلف في سوق قرية الميناء على المحيط الأطلسي

ومع ذلك فإن هذا السوق هو أكبر من قدر هذه القرية فيما لو كان لا يتسوق منه إلا أهلها.

وسألت شخصاً من الذين فتحوا حوانيتهم عن أكثر ما يبيعه في مثل هذا اليوم في العادة فذكر أنه السكر.

إلى فم الواد:

وينطقون بها بضم الفاء وتشديد الميم، والواد بحذف الياء فلا يقولون الوادي، وإنما يقولون: الواد.

بعد جولة حول هذه القرية التي تبين أنها صغيرة وأنها أشبه بقرية للأعراب المتحضرين رغم كونها بجانب الميناء الكبير على هذا المحيط العظيم، وجدنا أكثر ما في شوارع القرية

الرمال السافية، والأغنام السائبة والنساء الساحبات ذيولهن لولا رفعها بأيديهن.

ثم ذهبنا إلى (فم الوادي) ولن يكون ذهابنا إلى (فم الواد) ذات المزارع التي هي قليلة في غيرها من منطقة مدينة العيون وبجانبها حفرت الآبار الأرتوازية التي تغذي مدينة العيون بالمياه، وإنما سنذهب إلى قرية اسمها (فم الواد) القيادة العامة وذلك أن فيها قيادة الجيش المغربي في الممنطقة، فيها بيوت قليلة بنتها الحكومة لقوم كانوا يسكنون في خيام في المكان نفسه، وعلى ذكر بناء البيوت أقول إن جميع أبنية الميناء أو قرية المرفأ هي بالأسمنت المسلح وليس فيها شيء مبني من غير الأسمنت، وإن فيها ما هو مقام بلبن الأسمنت كالأسوار والبيوت التي من طابق واحد.

سلكنا الطريق الأزفلتي نفسه ألذي جئنا منه وهو طريق جيد ولاحظت أن الرمل الأحمر قد غطى الشجيرات الصحراوية الباقية في الأرض وإن كانت أعاليها اليابسة لا تزال بارزة.

مسجد قرية الميناء على المحيط الأطلسي

ولم نسر طويلاً حتى أخذنا ذات اليسار إلى جهة الشمال مع خط أسفلتي دون الخط الرئيسي الذي كنا نسير عليه من قبل وهو الخط الذي يصل مدينة العيون بمينائها على المحيط وهو خط واحد للسيارات الذاهبة والآيبة يفصل بينهما خط من الصباغ في بعض الأماكن.

وهذا الخط الفرعي ضيق وسيء الزفلتة.

وقد قرأت لافتة على الطريق المنطلق من الميناء إلى المدينة تقول (أقادير ٧٥٠ كيلومتراً) وذلك قبل أن ننحرف إلى طريق (فم الواد) و(أقادير) كما هو معروف في الشمال من هذه المنطقة، ولكن هذا الطريق الأسفلتي يذهب أيضاً جنوباً مخترقاً الصحراء المغربية الواسعة حتى يصل إلى الداخلة آخر المدن المغربية من جهة الجنوب ثم يستمر بعد الداخلة جنوباً حتى يصل القويرة- على لفظ تصغير القارة على الحدود المغربية الموريتانية في آخر حدود المغرب من تلك الجهة أي مما يلي ساحل المحيط الأطلسي.

ونوه السائق بأن هذا الطريق الأزفلتي من عمل المغرب، وقبل الوصول إلى (فم الواد: القيادة) وهي قريبة مررنا بمحطة لتوزيع الكهرباء ورأينا محطة إذاعة العيون التي تذيع أحياناً برامج محلية منفصلة وفي بقية الأحيان وأكثرها تنقل برامج الإذاعة المغربية من الرباط.

ثم وصلنا القرية التي هي ذات منازل صغيرة منفردة ولكنها مبنية على طراز شعبي خاص هو الطراز التقليدي لبناء البيوت الشعبية في جنوب المغرب.

وأجمل ما في هذه القرية المسماة بالقيادة مسجد أندلسي جميل ذو صومعة أندلسية بهية التقطت لها أكثر من صورة.

ووقفنا عند محطة المياه التي تزود القرية بالمياه العذبة مسحوبة إليها من (فم الوادي) العليا، والتقطت صورة تذكارية هناك عند شجرة مغروسة أظنها تشرب مع رفيقات لها من فضلات مياه الشرب هذه.

شاطئ أنظر البحر:

من قرية (فم الواد: القيادة) ذهبنا مع طريق أسفلتي قديم إلى شاطئ البحر حيث مصطاف اسمه بالإسبانية (ميرامار) ومعناها: انظر البحر، لأن (ميرا) هي انظر، ومار: البحر بالإسباني ولم يعرف السائق ولا شخص رأيناه في المنطقة اسمه بالعربية، وقالا: أنشأه الأسبان في الأصل لكن المغاربة زادوا عليهم، وذلك في داراته الصغيرة التي كانت تتخذ للاصطياف والتنزه على الشاطئ منها ما هو قديم بناه الإسبان ظاهر ذلك من قدم عهده، وطراز بنائه ومنها ما هو حديث بني في العهد المغربي وهذا حديث البناء.

الأمواج المتلاحقة على شاطئ المحيط الأطلسي

والشاطئ البحري بديع يوجد (بلاج) رملي تغسله الأمواج وهي تقبل وتدبر في طيات كأنها طيات البسط البيض، لأن الشاطئ بعضه أرفع من بعض بتدرج من مياه المحيط العميقة حتى يصل إلى الرمال الصافية، ولا نقول: السافية كما هي عليه بنات عمها من رمال الصحراء المجاورة لها.

وفي جانب من الشاطئ موضع مرتفع نسبياً بنيت فوقه الدارت المذكورة، ويظهر أن هذا الشاطئ كان يلقى في عهد الاستعمار الإسباني من العناية أكثر مما يلقاه الآن في العهد الوطني، ويكاد يكون الوحيد بين معالم البلاد التي تتصف بهذه الصفة، وذلك لكون الأوروبيين يعتنون بالشواطئ وقضاء الإجازات فيها أكثر مما يعتني به السكان الأصلاء، وهذا بصفة عامة، وبصفة خاصة فإن سكان مدينة العيون هم في الأصل من أهل الصحراء الذين لا يولعون بقضاء الوقت في التعري على شواطئ البحر لأنهم قد شبعوا من الشمس التي يتطلبها الأوروبيون.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن طبقة المترفين ليست كثيرة العدد، إن لم نقل إنها غير موجودة إذا استثنينا النادر الذي لا حكم له.

ولذلك كله لم يطور هذا الشاطئ الجدير بالتطوير، لاسيما أنه قريب من المدينة فلا يبعد عنها بأكثر من ٣٣ كيلومتراً، ومع ذلك ذكر لي الأخ السائق الذي يتردد على هذه

المنطقة كل يوم بأن هذا الشاطئ يكون مأهولاً في الصيف من أناس يقيمون في هذه الدارت (الفيلات) وأناس يأتون بخيام لهم ينصبونها حوله.

لقد استغرقني منظر الأمواج المتتابعة على هذا الشاطئ الرملي النقي وهي تنشر أطراف أرديتها البيض ثم تطويها في حركة دائبة والهواء البحري العليل يصافح الوجوه والشمس الصحراوية، وإن كانت سافرة فإنها صاهرة للوجوه والأطراف، وتمنيت لي دارة من هذه الدارات التي ليس فيها سكان في الوقت الحاضر، وما أهون شرائها على مثلي إذا نظرنا إلى الثمن المجرد، ولكن لي أمنية أخرى لا تتحقق وهي أن تقترب أكثر من بلادي!

ومع ذلك وجدتني أقول في سري ثم لصاحبي: ما أضيع هذا الشاطئ.

المؤلف على شاطئ المحيط الأطلسي

عدنا إلى قرية (فم الواد: القيادة) فلاحظت فيها ما لم ألاحظه من قبل وهو لافتة كتبت على أحد بيوتها الصغيرة- إن لم أقل الحقيرة- وتقول تلك اللافتة (الحزب الوطني الديمقراطي) فقلت في نفسي ما لهذه البيوتات القليلة المتناثرة والحزب الوطني الديمقراطي؟

ورأيت بعض الناس عند صنبور المياه المتدفق هناك فالتقطت صورة تذكارية مع أحد سكان هذه القرية.

تركنا هذه القرية ذاهبين جهة الشرق مبتعدين عن المحيط وداخلين في الصحراء فوصلنا إلى (فم الواد) ذي التسمية القديمة وهو في مجرى الواد الكبير الذي يسمى وادي الساقية

الحمراء عند مروره قرب مدينة العيون، وهو هنا متسع ليس له جروف محيطة به ولذلك اتسعت الأرض على جانبيه، وأنشأوا مزارع للخضرات عليها كما قامت الحكومة بحفر عدة آبار أرتوازية سحبت مياهها إلى مدينة العيون للشرب والاستعمال في المنازل وهو غير خالص العذوبة، وإن كان يمكن شربه للمحتاج إليه، ولذلك يشرب سائر الأجانب الذين في فندقي من المياه المغربية العذبة التي تستورد في زجاجات واشهرها (سيدي حرازم) و(سيدي علي) وهذان مكانان يسميان بهذين الاسمين فيهما المياه المعدنية العذبة.

ولو كان لدى الإخوة المغاربة الإمكانات اللازمة لحلوا هذه المياه الأرتوازية بأن رشحوها فأبعدوا عنها الشوائب الملحية وغيرها كما نفعل نحن الآن في تنقية مياه الآبار الأرتوازية، ولذلك تنتفي الضرورة إلى شرب المياه المعدنية.

وهذه المنطقة كانت فيها قرية صغيرة قديمة فيها آبار معتادة تزرع زراعة قليلة واسمها القديم: (فم الواد) لكونها في مجرى هذا الوادي الكبير.

ورأينا على البئر الأرتوازية الرئيسية مبنى صغيراً ذا سور أحمر هو بمثابة المكتب لملاحظة هذه الآبار والمياه المستخرجة منها عليه لافتة نصها: (المكتب الوطني للماء الصالح للشرب).

وعدنا إلى دخول الطريق الأسفلتي الذي حثنا منه وهو المؤدي إلى مدينة العيون تطالعنا كثبان حمر بعيدة ومررنا بالمنطقة من الطريق التي تهددها الرمال السافية، وفيها لافتة كتب عليها (أشغال مكافحة الرمال) بالعربية وحدها.

العودة إلى مدينة العيون:

صليت العصر والظهر جمعاً وكانت الساعة تغارب الثانية عشرة والنصف وهذا هو موعد مغادرة الفندق مع أن طائرتي التي سأسافر عليها عائداً إلى الدار البيضاء لا تقوم إلا في الخامسة، فدفعت للفندق أجرة الغرفة عن ليلتين ٦٢٠ درهماً مغربياً ٦٥ دولاراً أمريكياً على وجه التقريب، وهذا رخص متناه، وهذه الأجرة تشتمل أيضاً على طعام الإفطار الذي فيه البيض مع المربى والزبد والقهوة أو الشاي.

وكانت معاملة أهل هذا الفندق ممتازة حتى إنهم لأدبهم لا ينادونني إلا بكلمة يا سيدي مع الاحترام الزائد شأنهم في ذلك شأن الإخوة المغاربة، بل والأخوات المغربيات، وأعتقد أن هذه جِبلّة جبلوا عليها وليس نتيجة لتعليمات صدرت إليهم، فهم لطيفون جداً في معاملة الغريب، ومؤدبون في مخاطبته ولو كان الأمرمقتصراً على أهل هذا الفندق الذي نزلت فيه ورأوا جوازي (دبلوماسياً) سعودياً لقلت: إن هذا من تأثير ذاك، و لكن الرقة في المعاملة والتهذيب والمجاملة هي صفة عامة فيهم أسأل الله تعالى أن يوفقهم للخير، وأن يهيء لهم أسباب النهوض ببلادهم وأن يحفظها من الزلازل والفتن التي تجلب المآسي والمحن.

كنت عازماً على زيارة الداخلة وهي المدينة الصحراوية المغربية في الجنوب وكانت عاصمة المنطقة التي ألحقت بموريتانيا إبان انسحاب إسبانيا من الصحراء وبعد ذلك بقليل، ولكن عصابات البوليساريو ومن انضم إليهم من اليساريين والمرتزقة الأجانب بدأت بالهجوم على الموريتانيين في الداخلة، لأنهم الحلقة الأضعف فلم يصمد الموريتانيون لذلك الهجوم، بل إنهم آثروا السلامة والانسحاب على غنيمة التراب فتركوا الصحراء ومشكلاتها للمغرب الذي سارع فحل محل الموريتانيين في هذه المنطقة الجنوبية من الصحراء وهي على كل حال لم تخرج من اليد العربية سواء أكانت موريتانية أم مغربية.

وكانت زيارة مدينة (الداخلة) حلماً لم يتحقق لأن الخطوط المغربية أخبرتني هذا الصباح أن أول رحلة لها من العيون هي يوم الاثنين القادم، وذلك يعني أن أبقى ثلاثة أيام بدون حاجة للإقامة، لذلك آثرت العودة إلى الدار البيضاء، مؤملاً أن أزور أيضاً تلك المنطقة الجنوبية من الصحراء وعاصمتها مدينة الداخلة في كرة أخرى.

وقد بقيت في مقهاة الفندق (نقجير) أكتب ما تقرأه الآن حتى وصلت الساعة إلى الثالثة والنصف ظهراً فأخذت سيارة أجرة من باب الفندق إلى باب المطار نقلتني مع أمتعتي بأجر قدره (وبيانه) عشرة دراهم مغربية، وهذا يساوي أربعة ريالات سعودية، أو ما يزيد قليلاً على دولار أمريكي واحد مع أنني لم يكن معي غيري في السيارة، ومعي أمتعتي الثقيلة.

ولم أجد الموظفين قد فتحوا مكاتب الترحيل فجلست على المقاعد الجيدة في قاعة الترحيل ولم استطع الكتابة لأن (ذباناً) صحراوية خشنة القوائم حادة الخراطيم، كانت تتناوب لسع كل ما تصل إليه من جلدي، بل حتى الذي لا تصل إليه من دون حجاب كالقدمين والساقين الملفوفين في الجوربين كانت الذبان تنهشها من وراء الحجاب الرقيق من الجورب غير الصفيق، مما جعلني أقوم وأقعد، واقترب من كرسيي وأبعد، ولم ينجني من لسع هذه الأذية إلا الخروج من قاعة المطار إلى الشمس الصاحية في هذا النهار.

وفي الساعة الرابعة بالتمام بدأوا وزن الأمتعة وقال الموظف المختص: إن حقيبتك وزنها زائد ولكننا سامحناك، فقلت: هو ذاك، لكونها كبيرة وفيها هدايا كثيرة من هدايا الإخوة الأفارقة الذين مررنا ببلادهم في هذه الرحلة قبل الوصول إلى الصحراء.

وقبل الدخول أو إن شئت قلت الخروج إلى قاعة المغادرة كان موظف الجوازات يدقق في تسجيل البيانات المتعلقة بالراكب يأخذ بعضها من جوازه وبعضها يسأله عنه، و إن لم يطلب منه، أن يكتب ذلك بنفسه ويوقع عليه كما تفعل أكثر المطارات في كل القارات.

ورأيت في المطار طائرتين مروحيتين مثل طائرتنا وقد كتبت عليهما بخط بارز (هيئة الأمم المتحدة) وفي فندقنا ضباط ساكنون بينهم ضابطتان باللباس العسكري الرسمي، وكلهم من الإفرنج، فقلت في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، حتى نساء الإفرنج جئن ليعملن على حل المشكلات التي بيننا، لأنها جاءت في إطار حل مشكلة الصحراء.

من العيون إلى الدار البيضاء:

أقلعت الطائرة المغربية وهي مروحية صغيرة مثل التي قدمنا بها إن لم تكن هي بالذات في الخامسة و الربع عصراً متأخرة ربع ساعة عن الموعد المحدد لقيامها في الأصل، وقد عرضوا أمتعة الركاب عليهم وهي على الأرض لكي يتعرفوا عليها قبل رفعها إلى الطائرة احتياطاً للأمن.

وعندما ألقيت نظرة أخيرة على مبنى المطار وما حوله كانت الشجرة النضرة فيه أثلة صحراوية ريانة لم أكن رأيت أختاً لها هنا من قبل وشجرة من أشجار نخيل الزيت أكثر الأشجار- على عقمه- وجوداً في هذه المدينة ووادي الساقية الحمراء، والرمل الأحمر (رمل العيون) وهذا الوصف (رمل العيون) ذكرني بما قاله العامري في وصف وادي الرمة الذي يمر بالقصيم بقوله:

فأعلى (الرمة) لأهل المدينة وبني سليم، ووسطها لبني كلاب وغطفان، وأسفلها لبني أسد وعبس، ثم ينقطع في الرمل (رمل العيون) يريد بذلك عيون النباج الذي صار يسمى الآن الأسياح في شرق القصيم والرمل فيها هو (نفود الأسياح) وقلت في نفسي: ما أبعد المسافة بين (العيونين) إن صح أن العيون وهي جمع تثني على (عيونين).

وأخذت مدينة العيون تبتعد وخُيِّل إليَّ أن الرقة واللطف تبتعد معها، ولكن إبتسامة من المضيفة المغربية في الطائرة أعادتني إلى صوابي فأدركت أنني لا أزال مع المغاربة وأنني ذاهب إلى بلاد المغاربة بل إلى أكبر مدينة في المغرب: مدينة الدار البيضاء التي سافرت منها بعد ذلك عائداً إلى الوطن مع طائرة مغربية عملاقة من طراز ٧٤٧ المعروف بالجامبو حيث ركبت بالدرجة الأولى من الدار البيضاء إلى جدة، ولله الحمد.

الفصل الثاني

الأرض الخضراء المغربية
منطقة فاس

العودة إلى المغرب:

لم تكن العودة إلى المغرب هذه المرة مقصودة لذاتها ولا مرسومة في برنامج رحلتي التي بدأت من جدة ومرت بمطار الدار البيضاء في المغرب مروراً لم تصل مدته إلى الساعة ثم من هناك إلى داكار عاصمة السنغال حيث حضرت مؤتمراً إسلامياً ذهبت بعده إلى مدينة دوالا في الكاميرون، ومنها إلى (مالبو) عاصمة جمهورية غينيا الاستوائية، وبعد الانتهاء من زيارة تلك الجمهورية ذهبت إلى دولة مجاورة لها في مياه المحيط الاطلسي هي ساوتومي وبعد ذلك عدت إلى داكار حيث سافرت إلى المغرب.

يوم الخميس١٤١٦/١١/٢٣هـ

من داكار إلى الرباط:

وكان العنوان سيكون في ذهني من قبل (من داكار إلى الدار البيضاء) لأن هذه هي الطريق المعروفة فمطار الدار البيضاء هو المطار العالمي الرئيسي في المغرب الشقيق وتذكرتي التي أحملها من بلادي مكتوب عليها هذا.

وقد ركبت من مطار داكار مع طائرة الخطوط المغربية التي كل ما فيها يسر قلب الراكب العربي ونظره من صحف ومجلات ونشرات بالعربية ومن وجوه عربية صبيحة، تتكلم بلغة عربية فصيحة، ومن طعام وإدام هو الطعام والإدام الذي تعودنا أن نأكله في بلاد لنا أو قريب منه، لاسيما إذا كنت مثليَ في هذه الرحلة قد قدمت من بلاد إفريقية غربية، ذات جواء ندية، ووجوه أبنوسية.

وكانت الطائرة قد أقلعت من مطار داكار في الساعة الواحدة والنصف ليلاً ونزلت الطائرة في المطارالمغربي، ولم أشك بأنه مطار الدار البيضاء وبخاصة أنني عندما وقفت عند ضابط الجوازات ورأى جوازي (دبلوماسياً) مكتوباً فيه اسم وظيفتي مع اللقب (معالي الشيخ الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي) نادى أحد الضباط وكلمه بشيء فصار هذا الضابط يسعى معي في كل ما يحتاج إلى إجراء في المطار، حتى إنه صار يدفع عربة اليد التي عليها أمتعتي وصرت أتبعه لا أنظر إلى ما حولي نظر فاحص لاسيما والوقت بعد منتصف الليل، وأنا لم أنم في النهار ولم أشك أبداً في أنني في مطار الدار البيضاء، وفسرت ذلك في نفسي بأن الضابط جاء بي مع باب آخر حتى موقف سيارات الأجرة على الرصيف يشبه مثيله في الدار البيضاء، ولذلك قلت لما سألني الضابط بأدب عن الجهة التي أريد أن أذهب إليها الآن؟ قلت: الدار البيضاء؟ فقال: لدينا حافلة ستقوم إلى الدار البيضاء بالركاب، فظننتها حافلة معتادة بالأجرة وقلت له: إنها سوف تتأخر إذا كانت تنتظر فراغ الركاب وهذا صحيح و أريد أن أركب (تاكسياً).

في مدينة الرباط:

ركبت مع سيارة الأجرة فانطلق سائقها بسيارته بعد أن ودعني الضابط ولم أر في طريق المطار ما اعتدت أن أراه من كثرة السيارات فيه لكونه لا ينتهي بالمطار وإنما ينطلق قبل الوصول إليه إلى أماكن أخرى.

ووصلنا بسرعة إلى أبنية لا أعرفها من قبل وقف السائق عند أحدها كالمعتاد ثم جاء

إليَّ يطلب الجواز فقلت له: إنني أريد الذهاب إلى الدار البيضاء وسوف أنام فيها ثم أذهب غداً إلى الرباط.

فأخذ جوازي ثم عاد إليَّ قائلاً: تفضل وسار بسيارته غير بعيد وقد استنكرت هذه الأبنية التي لم أكن أعرفها في الطريق من مطار الدار البيضاء إليها.

فقلت له: كم تبعد الرباط من هنا؟ فقال ٢٠ كيلومتر، فظننت أنه يريد أن يقول ٢٠٠ كيلو متر فسكت، ولكنني دخلت إلى بلدة فقلت: ما هذه كيف وصلنا إلى الدار البيضاء؟

الغلط بالصواب:

أجابني السائق بما ردني إلى صوابي وعرفت منه ما لم أعرفه من الطائرة وهو أن الطائرة لم تستطع النزول في مطار الدار البيضاء فنزلت في مطار الرباط، ولكنهم لم يعلنوا ذلك ولم يذكروه للركاب إلا إذا كانوا فعلوه ولم انتبه له، مع أن جميع إعلاناتهم بالعربية قبل غيرها.

فقلت له: هذا جيد وهو من حسن حظي فأنا أريد (الرباط) فقال: ولكنني سجلت في المخزن يريد الحكومة ويعني المركز الحكومي أنني ذاهب إلى الدار البيضاء، قلت له: وإن فعلت ذلك فلا يمكن أن أذهب الآن للدار البيضاء لأعود صباح غد إلى الرباط التي انا فيها الآن فأبحث لي عن فندق أسكن فيه في الرباط، فسأل عن عدة فنادق بعضها غير جيد وبعضها ليس فيه غرفة خالية حتى أوقفني عند فندق في قلب المدينة ذكر أهله أن فيه غرفة لي وأن أجرتها ٢٩٠ درهماً مغربياً داخل فيها طعام الإفطار.

وهذا رخيص بالنسبة إلى مستوى الفندق لأنه لا يزيد على ١٣٠ ريالاً سعودية، واسمه (فندق تيرمينوس) و هذا اسم فرنسي.

وأعطيت السائق مائتي درهم فأبى وقال: أريد أجرة الدار البيضاء فهكذا أنت قلت أمام الضابط، وهكذا سجل المخزن، فقلت: هذا صحيح ولكنني لم أكن أعرف أنني في الرباط، وذكر أن الأجرة للدار البيضاء أربعمائة درهم أي ١٨٠ ريالاً سعودية ولم يرض حتى أعطيته (٣٠٠) درهم.

أخذت مفتاح الغرفة بسرعة لأن إجراءات الدخول في الفنادق المغربية سهلة.

يوم الجمعة: ١٤١٦/١١/٢٤هـ:

في بلادي:

كان صباح هذا اليوم هو صباح بلادي بلا فرق فالشفاه تنطق باللغة التي ينطق بها أهل بلادي والوجوه هي وجوه قومنا العرب، والفطور عندما قدموه في مطعم الفندق هو الفطور السخي الذي يزيد اربعة أضعاف على ما اعتدت على رؤيته في الفنادق ذات الصبغة الأوروبية في إفريقية وكل شيء يدل على وفرة الخير والسخاء في تقديمه.

وأسرعت أرتدي ملابسي وأخرج لأرى المنطقة التي يقع فيها الفندق فإذا به يقع على شارع محمد الخامس مجاور لمحطة القطارات لا يفصل بينه وبينها إلا شارع عريض وقريب من ذلك مبنى المجلس النيابي (البرلمان).

وبجانب الفندق مقصف ممتاز رخيص، و تمشيت في المنطقة وكل ما أرى فيها يطابق ذوقي، ورأيت في المغربيات السائرات في الشوارع جمالاً لم أعهده فيهن من قبل، ولا شك في أن جزءاً من ذلك يعود إلى الأيام العديدة الماضية التي قضيتها في إفريقية الخضراء وكان آخرها أمس.

ورأيت من لطف المعاملة والأدب مع الغريب عند المغاربة ما لم أكن أظن أنني رأيته من قبل مع أنني أعرف المغرب وأهله.

واشتريت صحفاً عربية من بائع صحف عند الفندق، وعزمت على أن أمنح نفسي إجازة أقضيها في الكتابة والاسترخاء حتى أشبع من ذلك.

وكان الأمر كما أردت وإذا حان وقت الغداء ذهبت إلى أحد المطاعم المغربية النظيفة التي تقدم الأطعمة العربية العريقة على الطريقة المغربية السخية، ومنها إلى أماكن بيع الفاكهة التي لم يكن معظمها قد أدرك بعد.

يوم السبت: ١٤١٦/١١/٢٥هـ:

العدول عن السفر إلى لبنان:

كنت قد قررت أن أذهب بعد الانتهاء من عملي في إفريقية إلى بيروت لقضاء بقية أجازة كنت قد حصلت عليها وأنا في مكة تمتد حتى حلول عطلة عيد الأضحى، غير أن لبنان تعرض إلى عدوان يهودي واسع استمر أياماً جعل الذين كانوا في لبنان يحاولون الخروج منه، لذا قررت أن أقضي بعض عطلتي التي بقي فيها حتى هذا اليوم تسعة أيام في المغرب وبعضها عند أولادي في الرياض.

وهكذا قررت السفر غداً إلى مدينة فاس وهي المدينة التاريخية المهمة التي لم أكن زرتها في السنوات الأخيرة، وكنت عزمت على ذلك في الماضي غير أن الوقت لم يسعفني به، وحانت الفرصة الآن.

يوم الأحد: ١٤١٦/١١/٢٦هـ:

من الرباط إلى فاس:

أودعت حقيبتي الكبيرة وصندوقاً فيه كتب من المطبوعات المغربية كنت اشتريتها لكونها لا توجد في بلادنا مستودع الفندق وحملت حقيبة صغيرة بيدي ونزلت من فندقي المجاور لمحطة القطار فاشتريت تذكرة بالدرجة الأولى من شباك بيع التذاكر بـ ٩٢ درهماً مغربياً ويعادل ذلك نحو أربعين ريالاً سعودية.

وكانت بقيت بقية من الوقت قبل تحرك القطار فانتهزت الفرصة وأكلت غداء جيداً رخيصاً من مطعم المحطة بـ ٢٦ درهماً وهي كفتة من اللحم مع بطاطس وجزر وشاي أخضر إلى جانب بعض المقبلات.

محطة القطارات في الرباط

وتناولت ذلك في مطعم المحطة وهو نظيف معتنى بأثاثه، والأهم من ذلك لطف المعاملة من العاملين فيه مثل أكثر المغاربة في هذا الشأن.

وفي الوقت المحدد لتحرك القطار وهو الثانية إلا الربع ظهراً وكانوا كتبوا ذلك على الشباك تحرك القطار.

ووجدتهم خصصوا عربات لغير المدخنين فسرني ذلك، وكان في العربة قبلي رجلان

وامرأة وكلهم من المغاربة.

أما الرجلان فقد نزل أحدهم في منتصف الطريق، وأماالمرأة فقد ظلت مثلي في القطار حتى فاس، والتقطت صورة لمحطة قطار الرباط الجميلة التي لا يكدر من جمالها إلا كون الركاب ينزلون بأنفسهم إليها مع درج عند الركوب للوصول إلى موقف القطار، ويصعدون مع هذا الدرج ومعهم أمتعتهم عند الوصول إلى الرباط، وهذا أمر شاق على من يحمل أمتعة وكذلك على كبار السن وغير الأصحاء والأولى أن يكون فيها مصعد يوصل إلى ظهر الشارع في الأعلى كما تفعل بعض محطات القطار العالمية أن يكون فيها سلم متحرك كهربائي، وهذا يمكن أن تضاف نفقاته على التذاكر حتى تستوفي، ومن الممكن أن يجعل هذا السلم الكهربائي المتحرك مثلما رأيته في مطار (ريو دي جانيرو) في البرازيل بحيث يكون ساكناً حتى إذا وطأ الراكب على مقدمته تحرك وظل يعمل حتى لا يكون عليه أحد، وإذا خلا من المستعملين وقف، وذلك من أجل تخفيض تكلفة استهلاكه للكهرباء.

ثم مر القطار بنهر (أبي الرقراق) الذي يفصل بين مدينتي سلا والرباط، وذلك عند مصبه في المحيط الأطلسي لان كلا المدينتين على شاطئ المحيط.

نهر أبي الرقراق قرب الرباط

وقد ذكرت بهذه المناسبة أول مرة سرت فيها فوق الجسر الذي يصل المدينتين على هذا النهر كان ذلك في عام ١٣٩١هـ أي منذ ربع قرن وكنت وقتها نازلاً في فندق منارة حسان،

أو صومعة حسان كما يسمى بعضهم المنارة وكانت تلك زيارتي الثانية للرباط فخرجت أتمشى في ضاحية المدينة وأعجبني الذهاب سيراً على الأقدام إلى مدينة (سلا) التاريخية التي كنت أتمنى رؤيتها فسرت على الجسر ورأيت عنده غلاماً معه سمكة قد اصطادها من النهر، والنهر متصل بالمحيط فسألته قائلاً: بكم السمكة؟ فلم يفهم ما أريد لانه فيما يظهر أميٌ أو قروي فقال له رجل كان يمر بنا مصادفة: يقول لك: (إيش حال من درهم) ويومها عرفت أن العامة من المغاربة هنا لا يستعملون أداة الاستفهام (كم) مثلنا، وإنما يضعون بدلاً منها جملة (إش حال)؟ وكلتاهما عربية.

وقفة في مدينة القنيطرة:

وقف القطار في محطة القنيطرة وقفة قصيرة لم تمكنا من رؤية شيء منها غير المحطة إلا ما نبصره من نافذة القطار وهو يسير.

واسمها على لفظ تصغير القنطرة بمعنى الجسر، وهو اسم لعدة بلدان في الوطن العربي منها مدينة القنيطرة في الجولان السوري التي أحتلها اليهود في عام ١٩٦٧م، ثم انسحبوا منها بعد أن خربوها.

ومعنى القنطرة الجسر المعقود فوق مجرى النهر، ولها في لغتنا العامية النجدية حيث لا يوجد أنهار معنى آخر، وهي قناة الماء العالية التي يجري فيها الماء من البئر إلى الجابية أو إلى أقصى الحقل.

واستأنف القطار مسيره بسرعة، وكل ما حولنا جميل فالدرجة الاولى نظيفة وليس فيها شيء يحتاج إلى إصلاح أو ترميم والمناظر خارج القطار وإلى مدى البصر غاية في الروعة فهي خضراء خضرة ربيعية جعلتها لا تفترق في ذلك عن الخضرة في أوروبا في الصيف، إلا أن المرافقين في العربة ذكروا أن هذا مؤقت لا يظل أكثر من شهرين ثم يلوي به الصيف.

ولكن يمكنهم الاستمتاع بذلك مدة شهرين، كما يمكنهم الإنتفاع منه بقطع العشب الكثيف وخزنه لعلف الحيوان.

سهول خضر في الريف المغربي (بين الرباط وفاس)

وسبب هذه الخضرة الكثيفة أمطار غزيرة متتالية هطلت على المغرب هذا العام، حتى الجو فإنه بارد منعش لأنه هواء ربيعي محبب يستطيع المرء فيه أن يلبس بدلة خفيفة دون أن يشعر بثقلها ويستطيع أن يلبس قميصاً دون أن يشعر بالبرد.

والحقيقة أن المملكة المغربية هي أحسن بلد عربي يمكن للسائح العربي أن يقضي إجازته متمتعاً بما فيه من تنوع في المناظر واختلاف في طبيعة مدنه، وباعتدال جوه في الشتاء والصيف، وإضافة إلى كثرة الفاكهة وتنوعها ورخص أثمانها.

مصنع الورق:

مررنا بغابات من الأشجار بعضها مقطوع في جانب منها مصنع تنفث مدخنته الدخان ذكروا أنه مصنع للورق وأن إدارة المصنع غرست هذه الأشجار من أجل أن تستعملها في استخراج الورق منها.

ولا شك في أنها غير كافية للمصنع إلا أنها تفيده.

وبعد ذلك وصلنا إلى بساتين الفاكهة، وكان الغناء الأندلسي ينبعث من سماعة في العربة هادئاً يجعل المرء يتخيل أنه في الأندلس، فكل شيء حوله يحمله على أن يتخيل ذلك.

بلدة سيدي قاسم:

يعتبر هذا القطار سريعاً لا يقف إلا في أماكن قليلة إذا وقف وإذا سار سار بسرعة وقد وقف وقفة قصيرة جداً في بلدة كتبوا عليها اسمها (سيدي قاسم) وهي زراعية تلفها الخضرة التي منها خضرة الربيع الشاملة والخضرة المصنوعة بالزراعة.

بلدة سيدي قاسم قبل مكناس بين مكناس والرباط

خيل إليَّ عندما سار القطار عنها أن خضرة الريف قد زادت خضرة على خضرتها.

مكناس سيدي عبدالقادر:

هكذا تقول اللافتة على المحطة التي وصلنا إليها (مكناس سيدي عبدالقادر) فمكناس عندهم قسمان أو لنقل: أنهما بلدتان هما (مكناس الزيتون) و(مكناس سيدي عبدالقادر).

وقد استرعى انتباهي كثرة التسميات بسيدي فلان في المغرب فمثلاً المياه المعدنية التي تباع بكثرة ويتردد اسمها بكثرة في المغرب كله، بل وتصدر إلى أقطار إفريقية أخرى هي (سيدي حرازم) و(سيدي علي).

الحقول الخضر في المغرب بالقرب من مكناس

وهكذا في هذا الطريق كثرت المسميات باسم (سيدي فلان) وعندما تصفحت كتاب (المغرب) للأستاذ الصديق بن العربي رأيت أن عدد القرى المسماة بسيدي فلان هو أكثر مما تخيلته، و(سيدي) هنا تقال للولي أو الشخص المعظم دينياً، لذلك تبادر إلى ذهني أنها في مقابلة ما يفعله الإفرنج وبخاصة من الإفرنج الكاثوليكيين مثل الإسبانيين والبرتغاليين من التسمية بأسماء القديسين عندهم، فمثلاً ثانية مدن العالم من حيث عدد السكان هي مدينة (سان باولو) في البرازيل ومعنى اسمها (القديس بولص) وعاصمة تشيلي (سانياقو) أي القديس أيوب، وهو اسم شائع في المدن وفي عدة بلدان، لذلك إذا كتبت شركات الطيران اسم عاصمة تشيلي وضعت بين قوسين بجانبه (تشيلي) للتمييز بينها وبين المدن الأخرى.

فقلت في نفسي: (سيدي) هذه من حيث اللغة والتعبير مشابهة لكلمة (سانت) أو (سان) أو سانتو في اللغات اللاتينية.

مكناس في التاريخ:

وهذا ما ذكره الإدريسي في كتابه: (نزهة المشتاق، في اختراق الآفاق) عن مكناس أو مكناسة كما سماها، قال:

ومكناسة مدائن عدة وهي في طريق سلا والطريق إليها من فاس.

ومدينة مغيلة كانت قبل هذا الوقت متحضرة كثيرة التجارات متصلة العمارات وهي في فحص أفيح كثير الأعشاب والخضر والنواوير والأشجار والثمار، وهي الآن فيها بقايا عمارات وخراباتها متصلة والمياه تخترق في كل جانب منها ومكانها حسن وهواؤها معتدل.

ومن مغيلة إلى وادي سنات إلى فحص النخلة إلى (مكناسة) ومدينة (مكناسة) هي المسماة تاقررت وهي الآن باقية على حالها لم يدركها كبير تغير وهي مدينة حسنة مرتفعة على الأرض يجري في شرقيها نهر صغير عليه أرحاء وتتصل بها عمارات وجنات وزروع وأرضها طيبة للزراعات ولها مكاسب وأحوال طائلة.

مبنى أثري جميل في مكناس

ومكناسة سميت باسم مكناس البربري لما نزلها مع بنيه عند حلولهم بالمغرب وأقطع لكل ابن من بنيه بقعة يعمرها مع ولده وكل هذه المواضع التي أحلهم فيها تتجاور، وتتقارب أمكنتها بعضها من بعض.

وبلاد مكناسة منها التي تعرف ببني زياد وهي مدينة عامرة لها أسواق عامرة وحمامات وديار حسنة والمياه تخترق أزقتها ولم يكن في أيام الملثم بعد تاقررت أعمر قطراً من بني زياد وبينهما نحو من ربع ميل.

ومنها إلى بني تاورة نحو ذلك وبين تاورة وتاقررت نحو ذلك، وكانت مدينة تاورة

متحضرة جامعة عامرة وأسواقها كثيرة والصناعات بها نافقة والنعم والفواكه لاتقضى بها حاجة والماء يأتيها من جنوبها من نهر كبير، فينقسم في أعلاها ويمر ما انقسم هناك من المياه فيخترق جميع أزقتها وشوارعها وأكثر دورها.

منظر عام لمدينة فاس

ومن أسفل هذه المنازل إلى قبيلة من مكناسة على مجرى الماء الذي ياتي من بني عطوش وتسمى هذه القبيلة بني برنوس وهي منازل وديار لهم، وبها مزارع وكروم وعمارات وشجر زيتون كثيرة وفواكههم موجود تباع بالثمن اليسير، وفي شمال قصر أبي موسى سوق يقصد إليها في يوم كل خميس يجتمع إليه جميع قبائل بني مكناس وهي سوق نافقة لما جلب إليها ويقصد إليها من بعيد وقريب وتسمى السوق القديمة ومن قبائل بني مكناس المجاورة لهذه البلاد بنو سعيد وبنو موسى ويسكنها من غير قبائل مكناسة بنو بسيل ومغيلة وبنو مصعود وبنو علي ووریاغل ودمر وواربة وصبغاوة.

وقال صاحب الروض المعطار:

مكناسة الزيتون: مدينة في المغرب من نظر فاس إلى جهة المغرب، وهي أربع مدن وقرى كثيرة متصلة بالمدن والحصون، المُمَدَّن منها يسمى تاجرارات، وتفسيره المحلة، وهو محدث البناء يشرف على بطاح وبقاع مملوءة بغيضات الثمار وأكثرها الزيتون، ولذلك نسبت إليه، وعلى هذه المدينة سور كبير وأبراج عظيمة، وهي مدينة جليلة فيها ا لأسواق الحفيلة، وأنشأ

فيها بعض ملوك بني عبدالمؤمن بحاير عظيمة في نهاية الاتساع، وجلب ماء نهرها وغرست زيتوناً وكروماً، وزيتها أكثر زيت في المغرب، وبعده زيت النظر المسمى ببني فسيل، وهي كريمة الأرض طيبة المدرة، بل هي من غرُّ بلاد المغرب، أنظارها واسعة وقراها عامرة وعمائرها متصلة، تشقها الأنهار والمياه السائحة والعيون الكثيرة العذبة، وتطحن عليها الأرحاء، وتدخل الحمّامات.

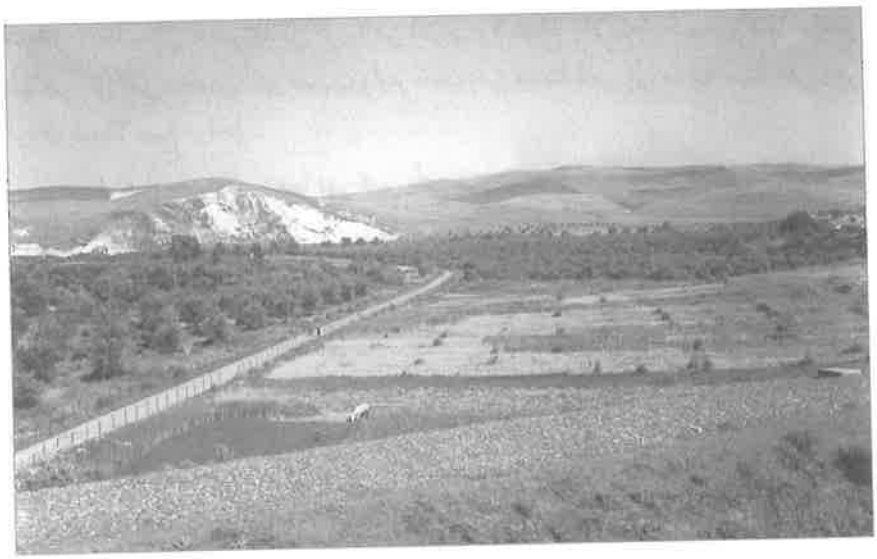

أشجار الفاكهة في المغرب بين الرباط وفاس

وبين مكناسة وفاس أربعون ميلاً في جهة الغرب، ومكناسة مرتفعة على الأرض، يجري في شرقيها نهر صغير عليه الأرحاء، وتتصل بها عمارات وجنات وزروع، وأرضها طيبة للزراعات، ولها مكاسب وأحوال صالحة، وسميت باسم مكناس البربري لما نزلها مع بنيه عند حلولهم بالمغرب وإقطاعه لكل ابن من بنيه بقعة يعمرها مع ولده، فكل هذه المواضع التي أنزلهم فيها تتجاور وتتقارب أمكنتها بعضها من بعض، وبلاد مكناسة لها أسواق وحمّامات وديار حسنة، والمياه تخترق أزقتها، وبين مكناسة وقصر ابن عبدالكريم ثلاث مراحل.

قبل الوصول إلى فاس

قال الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق:

ومدينة فاس قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى ويسكن حولها قبائل من البربر ولكنهم يتكلمون بالعربية وهم بنو يوسف وفندلاوة وبهلول وزواوة ومجاصة وغياتة وسلالحون.

وفاس هذه هي حضرتها الكبرى ومقصدها الأشهر وعليها تشد الركائب وإليها تقصد القوافل ويجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة وأهلها مياسير ولها من كل شيء حسن أكبر نصيب وأوفر حظ، ومن مدينة فاس إلى مدينة سبتة على بحر الزقاق شمالاً سبع مراحل.

ومدينة فاس مدينتان بينهما نهر كبير يأتي من عيون تسمى عيون صنهاجة وعليه في داخل المدينة أرحاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن له خطر، والمدينة الشمالية منهما تسمى القرويين وتسمى الجنوبية الأندلس، والأندلس ماؤها قليل لكن يشقها نهر واحد يمر بأعلاها وينتفع منه ببعضها، وأما مدينة القرويين فمياهها كثيرة تجري منها في كل شارع وفي كل زقاق ساقية متى شاء أهل الموضع فجروها فغسلوا مكانهم منها ليلاً فتصبح أزقتهم ورحابهم مغسولة وفي كل دار منها صغيرة كانت أو كبيرة ساقية ماء نقيا كان أو غير نقي وفي كل مدينة منهما جامع ومنبر وإمام وبين المدينتين أبدا فتن ومقاتلات.

وبالجملة إن أهل مدينة فاس يقتل فتيانها بعضهم بعضاً وبمدينة فاس ضياع ومعايش ومبان سامية و دور وقصور ولأهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم ونعمها كثيرة والحنطة بها رخيصة الأسعار جداً دون غيرها من البلاد القريبة منها، وفواكهها كثيرة وخصبها زائد وبها في كل مكان منها عيون نابعة ومياه جارية وعليها قباب مبنية ودواميس محنية ونقوش وضروب من الزينة وبخارجها الماء مطرد نابع من عيون غزيرة وجهاتها مخضرة مؤنقة وبساتينها عامرة وحدائقها ملتفة، وفي أهلها عزة ومنعة.

وقال صاحب الروض المعطار:

فأس: مدينة عظيمة، وهي قاعدة المغرب، وهما مدينتان مقترنتان يشق بينهما نهر كبير يسمى وادي فاس، يأتي من عيون تسمى عيون صنهاجة، وفي كل زقاق ساقية يجرونها متى شاءوا، وفي كل دار صغيرة كانت أم كبيرة ساقية ماء، وبين أهل المدينتين فتن ومصاولات، وفيهما معاً ضياع ومعايش ومبان سامية وقصور، ولأهلها اهتمام بحوائجهم، و نعمها كثيرة، والحنطة بها رخيصة، وفواكهها كثيرة وخصبها زائد، وفي أهلها عزة ومنعة، ومنها إلى سجلماسة ثلاث عشرة مرحلة.

وبالجملة فمدينة فاس قطب بلاد المغرب الأقصى، ويسكن حولها قبائل من البربر، لكنهم يتكلمون بالعربية، فهي حضرة المغرب الكبرى وإليها تشد الركائب وتقصد القوافل، وتجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة، وأهلها مياسير ولها من كل شيء حسن أوفر حظ.

ويدور عليها سور عظيم، وبين المدينتين قناطر كثيرة، وتطّرد فيها جداول لا تحصى تخترق كلتا المدينتين، وفيها عيون كثيرة لا تحصى، وهي أبداً تزيد في مواضع الانخفاض من المدينة، وفيها أرحاء للماء نحو ثلثمائة وستين رحى، يضمها السور، سوى الأرحاء التي خلف السور، وهي في التزيّد، وربما وصلت أربعمائة، والنهر الذي يخترق مدينتي فاس ينبعث من عين عظيمة لها منظر عجيب، فيها نحو الستين فوارة في دائرة يجتمع منها هذا النهر الكبير، بينها وبين المدينة نحو عشرة أميال في بساط من الأرض لا يكاد يتبين جري الماء فيه لاستواء أرضه.

ومدينة فاس محدثة، أسست عدوة الأندلسيين في سنة اثنتين وتسعين ومائة، وعدوة القرويين في سنة ثلاث وتسعين ومائة، في ولاية إدريس بن إدريس الفاطمي، ومن ذريته بقايا إلى اليوم.

ومدينة فاس اليوم في نهاية العمارة والصلاح، قد بنيت أكثر جنانها الملاصقة لها دوراً وأضيفت إليها، وفيها اليوم ثلاثة جوامع بثلاث خطب، جامع عدوة الأندلس، وهو جامع كبير متقن البناء، يقال إن ابن أبي عامر زاد فيه، وجامع عدوة القرويين أكبر من جامع عدوة الأندلس، وزيد في العهد القريب في هذا الجامع باب كبير مشرف جميل المنظر من جهة الجوف، وسقاية متقنة البناء ملاصقة له، وماؤها من الوادي، وجلب لها ماء عين هو في أيام الحر في نهاية البرد، وفي أيام البرد فيه بعض الحرارة، وكذلك صنع بجوفي جامع القرويين سقاية متقنة البناء ومياه جارية مع عتبة الباب الجوفي، وفوارة مرتفعة نصف قامة داخل الصحن، فعل كل ذلك في حدود سنة ثمان وسبعين و خمسمائة، وكذلك بقصبة السلطان جامع شريف معظم فيه الخطبة، أحدثها فيه خلفاء بني عبدالمؤمن لأن القصبة منحازة عن البلد بسور، فوجب أن يكون فيها جامع وفي كل عدوة شريعة لخطبة العيد.

ومدينة فاس كثيرة الخصب والرخاء كثيرة البساتين والمزدرعات والفواكه وجميع الثمار، ولها أنظار واسعة متصلة العمائر، وعدوة القرويين من هذه المدينة أكثر بساتين وأشجاراً ومياهاً وعيوناً، من عدوة الأندلسيين، وكلاهما خصيبة عظيمة القدر، ويقال إن رجال عدوة الأندلس أشجع وأنجد من رجال عدوة القرويين ونساؤهم أجمل من نساء القرويين، ورجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين، ويقال إن بعدوة الأندلسيين تفاحاً حلواً يعرف

بالأطرابلسي جليل حسن الطعم والرائحة، يصلح بها ولا يصلح بعدوة القرويين، وكذلك بعدوة القرويين أترج جليل يجود بها ولا يجود بعدوة الأندلسيين، وكذلك سميد عدوة الأندلسيين أطيب من سميد عدوة القرويين، وهذه المدينة قصبة بلاد المغرب، وكملت بهجتها في أيام بني عبد المؤمن، ومنها يتجهز إلى بلاد السودان، وإلى بلاد المشرق، ومنها يحمل النحاس الأصفر إلى جميع الآفاق.

وموقع وادي فاس بوادي سبو على نحو ثلاثة أميال من المدينة، ووادي سبو هذا نهر عظيم من أعظم أنهار بلاد المغرب منبعه من جبل بني وارتبن ورأس العين في شعراء غامضة يهاب الداخل الدخول فيها، وهي دهسة عظيمة لا يدرك لها قعر، و للبربر المجاورين لذلك الموضع فيها تجارب، منها أن المريض إذا أرادوا أن يعلموا هل يعيش أو يموت حملوه لرأس العين فيغطسونه في ذلك الموضع المهول حتى يقرب أن يهلك ثم يخرجونه، فإن خرج على فيه دم استبشروا بحياته وإلا أيقنوا بهلاكه وهذا عندهم متعارف لا ينكر، ويتصيّد في هذا الوادي الشابل الكثير، ويطلع إلى رأس العين أو قريب منه، ويدخل في ذلك الوادي الحوت الكثير.

وبين فاس وتلمسان عشرة أيام في عمائر متصلة، وكانت فاس دار مملكة بني إدريس العلويين وملكوا منها بلاد المغرب كلها إلى أقصى بلاد السوس طاعة في معصية، وكانت في أيامهم دولة برغواطة الذين تدينوا بديانة القدري صالح بن طريف البرغواطي، وملك العلويون بعض بلاد الأندلس، وتسمّوا بأمراء المؤمنين، وخطب لهم بالإمامة.

ومن فاس أبو عمران الفاسي الفقيه الإمام المشهور بالعلم والصلاح وهو أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حجاج الغفجومي الفاسي، توفي بالقيروان في الثالث عشر من شهر رمضان سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وقال أبو عمر بن عبدالبر: وُلِدتُ مع أبي عمران في سنة واحدة، سنة ثمان وستين وثلثمائة.

قول معاصر:

قال الأستاذ الصديق بن العربي:

فاس: تعد مدينة فاس من أكبر المدن الإسلامية في المغرب وتحتل مقاماً ممتازاً في المغرب كعاصمة ذات تاريخ مجيد.

يرجع تاريخ بنائها إلى عصر المولى إدريس الثاني الذي شيد بها سنة ١٩٣هـ في أول الأمر عدوة القرويين على الضفة اليسرى لوادي فاس ثم عدوة الأندلس على الضفة اليمنى منه.

وتعرضت المدينة لغزو الفاطميين على يد القائد جوهر الصقلي الذي فتحها سنة ٣٤٩هـ ثم غزاها الأمويون في عهد المنصور بن أبي عامر سنة ٣٦٥هـ، وفي عهد أمراء زناتة ومغراوة شيدت بها المساجد والفنادق والحمامات والدور والمخازن والأسوار والقناطر وازدهرت فيها الحياة الاقتصادية والتجارية ازهاراً لم تعرفه من قبل.

وفي عهد المرابطين والموحدين رغماً عن انتقال عاصمة الملك إلى مراكش أسست الدولتان بها عدة منشآت كالأسوار والمطاحن المائية وبعض الصناعات ثم أصحبت فاس عاصمة للمملكة في عهد المرينيين الذين أسسوا بها المساجد والمدارس العديدة كما أنشأوا بها المدينة البيضاء (فاس الجديد) التي بناها أبو يوسف يعقوب المريني خارج فاس وجعلها دار الملك والحاشية، وتسمى اليوم بفاس الجديد، واختط أبو سعيد عثمان بن يعقوب على مقربة منها مدينة حمص، وقد اندثرت وأقيم في مكانها حي الملاح.

وفي عهد الدولة السعدية شيد البرجان المحيطان بفاس من الشمال والجنوب وغزاها الأتراك سنة ٩٦٧هـ ثم دخلوها مرة ثانية سنة ٩٨٣هـ، وبنى بها الملوك العلويون قصبة الشراردة ومدرسة الشراطين وبعض القناطر فوق نهر سبو، وشيد بها السلطان سيدي محمد بن عبدالله مدرسة باب الحبيسة كما شيد بها المولى سليمان مدرسة الوادي وقنطرة الرصيف وجدد باب الفتوح وباب سيدي بوجيدة والديوان وبنى بها مولاي الحسن قصر بوجلود ومسجد دار المخزن وأكدال والمشور الجديد والمكينة ودار السلاح.

وفي سنة ١٩١١م على عهد المولى عبدالحفيظ دخلها الجيش الفرنسي القادم من الدار البيضاء إلى أن وقع امضاء عقد الحماية بها سنة ١٩١٢م.

ويمكن إجمال المآثر التاريخية بفاس مع تاريخ بنائها على الصورة التالية: منارة القرويين ومنارة جامع الأندلس سنة ٣٤٥هـ باب الفتوح وباب عجيسة ٤٥٢- باب الشماعين ٤٥٤- باب المحروق ٦٠١- قصبة فيلالة و قصبة بوجلود ٧٠٤- فاس الجديد ودار المخزن والملاح ٦٧٥- مدرسة الصفارين ٦٨٠ مدرسة العطارين والمصباحية والصهريج ٧٢١- المدرسة العنانية ٧٥٠ برج النور وبرج سيدي بونافع ٩٩٧- مدرسة الشراطين وقصبة الشراردة ١٠٨٠ مدرسة باب عجيسة ١١٨٠هـ.

أما أهم أثر تاريخي بفاس فهو جامع القرويين الذي يعد من أقدم الجامعات في العالم الإسلامي بني سنة ٢٤٨ وكان صغير المساحة في أول الأمر ثم وقعت فيه زيادة في عهد أمراء زناتة حيث بنيت منارته العجيبة وفي عهد المرابطين زيدت فيه زيادات كبرى أكسبته صورته النهائية، وبصحنه العظيم شيدت نافورتان للمياه شبيهتان بنافورات قصر الحمراء

بغرناطة بنيتا في عهد السعديين وبوسط الصحن نافورة أخرى يرجع تاريخها إلى القرن السادس الهجري وبالمسجد ١٤ باباً يرجع تاريخ بناء بعضها إلى القرن السادس أيضاً، وقد قام هذا المسجد بدور عظيم في تطور الحركة الفكرية والثقافية بالمغرب العربي والأندلس فكانت تُشَدُّ إليه الرحال من سائر الأنحاء وتخرج منه عدد كبير من فطاحل العلماء الذين حملوا مشعل الثقافة الإسلامية عبر القرون.

وبوسط جامع القرويين يوجد الناقوس الكبير المعلق بالبلاط الأوسط يزن ١٠ قناطير جلبه أبو الحسن المريني سنة ٧٣٣هـ من برج كنيسة بجبل طارق وأمر بتحويله إلى ثريا وكتب على نطاقه:

الحمد لله وحده، أمر بتعليق هذا الناقوس المبارك مولانا أمير المسلمين وناصر الدين أبوالحسن المريني.

وببيت الموقت بمنارة القرويين توجد بقايا ساعات مائية ورملية معطلة.

وبصحن الجامع تحت المنار توجد خصة الرخام التي أمر بصنعها المنصور الذهبي.

وإلى فاس هاجر عدد كبير من العائلات الأندلسية والقيروانية والتلمسانية في مختلف العصور.

ويوجد بفاس زيادة على ما ذكر ضريح المولى إدريس الثاني المتوفى سنة ٢١٣هـ، وهو مزارة عظيمة يقصدها الزوار من سائر أنحاء المغرب، وتضم مقابر فاس سواء داخل المدينة أو خارجها أضرحة عدد كبير من رجالات المغرب والأندلس من ملوك وعلماء وصلحاء كقبر الإمام أبي بكر ابن العربي المتوفي سنة ٥٤٣هـ ولسان الدين ابن الخطيب السلماني المتوفي سنة ٧٧٦هـ وابن باجة الفيلسوف المتوفي سنة ٥٣٣هـ.

وبفاس تتجلى روعة الفن المغربي الأندلسي في هندسة الدور والقصور والمنتزهات والحدائق والأسواق والمساجد والمدارس كما تتجلى في الفنون والصنائع اليدوية التي اشتهرت بجودة صنعها وحسن منظرها في القديم والحديث(١).

١ كتاب المغرب، ص١٠٧- ١١٠.

الريف المغربي الخصب (صورة التقطها المؤلف من نافذة القطار)

من كتاب (جني الأس في بناء مدينة فاس) للشيخ علي الجزنائي طبع المطبعة الملكية بالرباط عام ١٤١١هـ- ١٩٩١م:

قال الكتاب:

لما رأى إدريس رضي الله عنه أن الأمر قد استقام له وعظم ملكه وكثر حشمه وضاقت بهم مدينة وليلة عزمَ على الانتقال منها وأراد أن يبني مدينة لنفسه يسكنها هو وخاصة جنوده ووجوده أهل دولته، فركب بعد الاستخارة في خاصة قومه، وجال جملة من النواحي إلى أن بلغ جبل زالغ(٢)، فعزم أن يبنيَ به مدينة عظيمة.

فظهر له أن الهوام تكثر فيه زمن القيظ، فانتقل لوادي سبو(٣)، وعزم أيضاً أن يبنيَ به مدينة، فظهر له أن المدود تصل إليها زمن المطر، وما زال يرتاد حيث يبني، واستشار وزيره عميرَ بن مصعب الأزدي ليرتادَ له موضعاً للمدينة فسار عمير في جماعة من قومه لينظر ما طلب، فاخترق تلك النواحي، إلى أن نزل على عين ماء غزيرة مطردة في مروج نضرة، فتوضأ منها هو ومَن كان معه، وصلى بهم حولها، ثم دعا الله تعالى أن يهونَ عليه مطلبه، وأن يدله

٢ زالغ أو زلاغ: جبل يحاذي فاس من جهة الشمال تشكنه قبيلة لمطة.

٣ سَبُو: ثاني أنهار المغرب أهمية بعد نهر أم الربيع، ينبع من الأطلس المتوسط ويسير متعرجاً بانسباب روافده فيه، مثل وادي يناون، ووادي اللبن، ووادي ورغة، ووادي بهت، يحاذي فاس من جهة الشرق وفيه يصب النهر المار بها.

على موضع يرتضيه لعبادته.

فسميت العينُ عين عمير إلى الآن، ثم إنه ركب وتوجه نحو فحص سايس(٤)، ليطلبَ ما خرج إليه، حتى وصل إلى العيون التي ينبعث منها نهرُ فاس، فرأى عيوناً كثيرة تزيدُ على ستين عنصراً، ومياهها تطرد على رضراض في فسيح من الأرض، وحول العيون شعراء من الطرفاء والطخش والعرعار والكرخ وغير ذلك، فدله ذلك على جودة ماء تلك العيون بعد أن شربَ من الماء فاستطابه، وقال هذا ماء عذب وطعم معتدل ومحل كثير المنفعة لأجل ما جاوره من الأشجار وحوله من المزارع، ثم سار مع مسير الوادي حتى وصل إلى موضع مدينة فاس فنظرَ إلى ما بين العدوتين، فرأى غيضة ملتفة الأشجار، مطردة بالعيون والأنهار، وفي مواضعَ منها خيام من شعر يسكنها قبائل من زناتة يعرفون بزواغة(٥)، وبني يزغتن(٦).

فرجع عمير إلى الإمام إدريس رضي الله عنه وأعلمه بما رأى من الأرض وما استحسنه من كثرة مياهها وطيب تربتها ورطوبة هوائها وصحتها واعتدالها، فأعجب الإمام إدريس ما رأى من ذلك وسال عن ملاك تلك الأرض فقيل له هم قوم من زواغة يعرفون ببني الخير، فقال الإمامُ إدريس: هذا فأل حسن، وبعث إليهم واشترى منهم موضعَ المدينة بستة آلاف درهم ودفعَ لهم الثمن، وانعقد الإشهادُ بينهم بذلك في رسم من إنشاء كاتبه أبي الحسين عبدالله بن مالك المالكي الأنصاري الخزرجي، وذلك في سنة إحدى وتسعين ومائة.

ثم إن الإمام إدريس ضرب أخبيته وقبابه بالموضع المعروف بجراواوة(٧) من عدوة الأندلس، ودوَّرَ عليه جرواوة من الخشب فسميَ الموضع به إلى زمننا، ثم انتقل بعد ذلك إلى

---

٤ سايس: هو البسيط الممتد بين فاس ومكناس فاصلاً سلسلة جبال الأطلس المتوسط عن سلسلة الأطلس الساحلي، تسكنه قبائل عربية قحة مثل حميان والمهايا والشجع وأولاد سيدي الشيخ وأخرى بربرية مستعربة مثل آية عياش وبني مطير وكَروان، و هو معروف بهذا الاسم إلى الآن، وأرضه من أخصب أراضي المغرب وأجودها.

٥ زواغة: قبيلة زناتية شهيرة لم يبق لها اليوم وجود بهذا الاسم، ولكن الأراضي التي كانت تسكن بها عند مجيء الإمام إدريس إلى فاس ما زالت تعرف بها، وهيَ محاذية لفاس من جهة الجنوب، وعليها تمر الطريق الذاهبة من فاس إلى كندر (موزار).

٦ بني يازغة: وفي كتب تاريخية كثيرة بني يزغش، وقد عُرب هذا الاسم الآن فأصبح بني يازغة، وقد تحولت هذه القبيلة من مواطنها بضواحي فاس وأصبحت مستقرة إلى الجنوب الشرقي منها.

٧ ما زال هذا الموضع معروفاً باسم جرواوة حتى الآن، ويفهم من كلام الجزائني أن جرواوة- وأجرواو التي وردت في بعض النسخ- معناها الحائط والحاجز.

الموضع المعروف بالمقرمدة من عدوة القرويين حيث دارُ القيطون المتصلة بمسجد الشرفاء، ثم شرع في البناء حسبما يذكر بعدُ بحول الله تعالى، كذا ذكره ابن الرقيق وغيره.

ولما عزم الإمام إدريس رضي الله عنه على بناء مدينة فاس بعد أن اختبرَ تربتها وهواءها ورياحها وماءها، وتحقق بعدها من الصحراء والبحار والجبال الشامخة والسباخ العفنة وعلم أن ذلك مما يأمن به سكانها رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلا بها كتابك، وتقام بها سنتك وحدودك، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها، ثم قال بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله، والأرض لله يورثُها مَن يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، ثم أخذَ المعولَ بيده، وابتدأ يحفرُ الأساس، واتبعه الفعالة في ذلك، فلم تزل دار علم وسنة.

وذكر ابنُ غالب في تاريخه أن الإمامَ إدريس حين عزمَ على بناء مدينة فاس واختطاطها مرَّ به شيخ كبير من الرهبان كان مترهباً في صومعة قريبة من تلك الجهات، فوقف للإمام إدريس رحمه الله وسلّم عليه، ثم قال له أيها الأمير، ما تريدُ أن تصنعَ بين هذين الجبلين؟ قال: أريدُ أن أختطَّ بينهما مدينة لسكناي وسكنى ولدي من بعدي، يُعبَدُ الله تعالى بها ويتلا كتابه وتقام حدوده، فقال له أيها الأمير: إن لك عندي بشرى، قال: وما هيَ أيها الراهب؟ قال له: أخبرني راهب كان قبلي في هذا الديْر هلك منذ مائة سنة أنه وجد في كتب علمه أنه كان بهذا الموضع مدينةٌ تسمَّى ساف خربتْ منذ ألف سنة، وأنه يجددها ويُحيي أثرها و يقيمُ دارسها رجل من آل بيت النبوءة يسمَّى إدريس، ويكونُ لها شأن عظيم وقدرٌ جسيم، لا يزال دين الإسلام قائماً فيها إلى يوم القيامة، فقال إدريس: الحمد لله، أنا إدريس، وأنا من آل بيت النبوءة، وأنا بانيها إن شاء الله تعالى، فكان ذلك مما قوَّى عزمه على بنائها.

واختلفَ لمَ سُمِّيتْ فاس؟ فقيل إن الإمام إدريس لما شرع في بنائها كان يعمل فيها بيده مع الصناع والفعلة، فصنع له بعض خدمه فاساً، فكان يمسكه بيده ويبدأ به الحفرَ ويختطُّ به الأساسات للفعلة: فكثرَ ذكرُ ذك الفاس على السنتهم في طول مدة البناء، فكان الفعلة يقولون: هاتوا الفأس، خذوا الفاس، احفروا بالفاس، فسميت مدينة فاس لأجل ذلك.

ويقال: إنه لما شرع في حفر أساسها من جهة القبلة وُجدَ في الحفير فاسٌ كبيرٌ طوله أربعة أشبار، وسبعتُه شبر، وزنتهُ ستون رطلاً من عمل الأوائل، فسُميت المدينة به وأضيفت إليه، نقل معناه المظفري وقيل: إنه لما تمتْ بالبناء قيل للإمام إدريس: كيف تُسميها؟ قال: أسميها باسم المدينة التي كانت قبلها في موضعها الذي أخبرني الراهب أنه كانت هنا مدينة

أزلية من بنيان الأوائل فخربت قبل الإسلام بألف عام، وكان اسمُها مدينة ساف، ولكني أقلب اسمها الأول وأسميها به، فجاء منه فاس فسميتْ به، كذا نقله علي بن عبدالله بن أبي زرع في كتابه المسمى بـ(الأنيس).

وكان تأسيسُ مدينة فاس على ما ذكره المؤرخون الذين عنوا بتواريخها وبحثوا عن أمورها وأحداثها على نحو ما نذكر:

أما عدوةُ الأندلس فإنها أسست في يوم الخميس مهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومئة، أقام الإمامُ إدريسُ منها بالموضع المعروف بجرواوة حيث نزل بأخبيته وقبابه، وابتدأ سورها من جهة القبلة، وفتح هناك باباً سماه بباب القبلة، ثم مرَّ بين الموضع المعروف بالفوارة وموضع زيتون ابن عطية وفتح هناك باباً سماه باب الفوارة، ثم مر بالسور على الموضع المعروف بالمخفية إلى الوادي الكبير إلى برزخ وفتح هناك باباً سماه بباب المخفية، كان يقابلُ بابَ الفرج من عدوة القرويين، ثم مرَّ بالسور إلى الشيبوبة(٨) وفتح هناك باباً سماه باب الشيبوبة كان يقابل باب الفرج من عدوة القرويين، ثم مرَّ بالسور إلى رأس حجر الفرج وفتح هناك باباً سماه بباب أبي سفيان، ثم مرَّ بالسور على جرواوة وفتح هناك باباً سماه بباب الكنيسة يعرف الآن بباب الخوخة، وبخارجه كان سكنُ المرضى لتكونَ روائحُهم تحتَ الريح الغربية فإنها الغالبة بفاس، وليكون تصرفُهم من الماء بعد خروجه من البلد ولا يصل من ضررهم للمدينة شيء، ثم انتقلوا من الموضع المذكور لكهوف باب الشريعة في زمن المجاعة، وكانوا يتصرفون بالماء الذي بأعلا المدينة، فرفع لمولانا أمير المسلمين يعقوب بن عبدالحق رحمه الله أن ذلك يضرُّ بالناس، فأمر بانتقالهم لكهف بظاهر برج الكوكب(، وهو الموضعُ الذي فيه سكناهم الآن، ثم مرَّ بالسور إلى أن وصل باب القبلة المذكور، وقد استدارَ بها السور، ثم بنى جامعاً للخطبة بقرب رحبة البير، ويُعرف بجامع الأشباخ(٩).

وأما عدوةُ القرويين فإنها أسست في مهل شهر ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين ومئة، أقام الإمام إدريس منها بالموضع المعروف بالمقرمدة، ويعرف الآن بدار القيطون، وبقرب مسجد الشرفاء حيث سكنى حفدة إدريس رضي الله عنهم، وابتدأ سورها من رأس عقبة عين علون وفتح هناك باباً سماه بباب إفريقية وبه يُعرف الآن، وجدده مولانا المستعينُ ووسعه وذلك في شوال سنة ستين وسبعمائة، وكان حول العين التي هناك غيضةٌ عظيمةٌ يقطعُ بها الطريق عبدٌ أسودُ اسمه علون، فرفع ذلك للإمام إدريس فأمرَ بصلبه بأعلا شجرة هناك إلى أن تقطعت أشلاؤه، فسميت العينُ باسمه.

٨ هي الحومة الواقعة في نهاية الحدادين بين درب اللمطي وبين المدن.

٩ ويعرف أيضاً الآن بالجامع الأنور، وهو واقع في مدخل زنقة سيدي بوحيدة.

ثم مرّ بالسور إلى عين دوردور إلى عقبة الصعتر(١٠)، وفتح هناك باباً سماه بباب القوس، ثم مرَّ بالسور إلى أغلان وفتح هناك باباً سماه بباب الفصيل وهو الذي ذكرنا أنه يعرف بباب النقبة.

وكان الإمام إدريس رضي الله عنه في أثناء ذلك أمر الناس ببناء الدور والغرس، ونادى فيهم أن كل من بنى موضعاً واغترسه قبل تمام بناء السور فهو له هبةٌ لله تعالى.

ولما فرغ الإمام إدريس رضي الله عنه من بناء أسوار المدينتين وجامعي خطبتيهما أنزل القبائل الوافدين عليه من جزيرة الأندلس بالعدوة الشرقية منها فسميت بذلك عدوة الأندلسيين، وأنزل الوافدين عليه من القيروان بالعدوة الغربية منها فسميت بذلك عدوة القرويين، ثم أمرهم بزيادة البناء والغرس، فبنى الناس الدور والمساجد والحوانيت وغرسوا جانبي الوادي من منبعه بفحص سايس إلى مصبه في نهر سبو بأنواع الأشجار وضروب الثمار وحرثوا سائر نواحيها بأنواع الزراعات، فعمرت الأرضُ بالغراسة والحراثة وظهر صلاح ذلك والانتفاع بغلاته في أقرب وقت، فكثرت الخيرات، وزادت العمارات، وقصدها الناسُ من جميع البلاد والجهات والأصقاع، وسكنها الفقهاءُ والعلماءُ والتجارُ والصناع.

إنتهى كلامه

هذه فاس:

انقضى الوقت بسرعة لأن المناظر خارج القطار كانت رائعة ولكون رفقة العربة وهم كما قلت رجلان وامرأة كانوا يتبادلون الحديث بود وعفوية والقطار كان مريحاً جداً وسريعاً، وقد لاحت لنا مدينة (فاس) على البعد تلفها خضرة الربيع الشاملة ومنطقتها مكونة من ربى وأماكن مطمئنة بينها لذلك ترى تلك الربى من مسافة بعيدة وكلها خضراء الآن.

١٠ هي العقبة الواقعة بين العشابين وباب عجيسة، وبها ضريح أحمد بن يحيى.

الأعشاب البرية في ضواحي فاس

استقبل القطار جمع غفير من الناس ومعهم جمع من سائقي سيارات الأجرة ركبت مع أحدهم فأركب معي آخر من دون أن يسـأذن مني، واستوفى مني الأجرة كاملة ولا أدري ماذا أخذ من الآخر.

فندق البطحاء:

قلت للسائق: إنني أريد أن أنزل في فندق نظيف مناسب في فاس القديمة، فذهب بي إلى (فندق البطحاء) ولو لم يكن فيه إلا اسمه العربي الفصيح بل العريق، وكونه صار اسماً على ناحية في الرياض هي (البطحاء) لكفى.

قلت لامرأة في الاستقبال: كم أجرته؟ وكنت ظننتها لا تقل عن مائة دولار، فقالت: ٢٠٠ درهم وهذا يعدل ٢١ دولاراً فقط.

فالفندق كان أصله قديماً وكان مقراً للقنصلية البريطانية، وقد رمم على الطريقة المغربية الأصيلة بحيث حلوا جدره وحماماته بالفسيفساء الشبيهة بالأندلسية، بألوانها الأزرق والأخضر، وحلوا مداخله بعقود جصية جميلة مما عرف بالفن المغربي في النقش بالجص وبالجبس في العهود الأخيرة، كما فرشوا أركانه بالزرابي وهي السجاد المصنوع محلياً وفقاً للفن المغربي الجميل.

وكلمة (زربية) هذه التي تفرش على الأرض هي افصح من لفظ (سجادة) التي نستعملها لأن (رزيبة) لفظ قرآني ورد بصيغة الجمع (وزاربيّ مبثوثة) بخلاف (سجادة) الذي كان في الأصل للسجادة الصغيرة التي يصلي عليها الإنسان فهو يسجد عليها إذا صلى.

والزرابي، في هذا الفندق، فندق البطحاء مبثوثة فيه بالفعل وليست خاصة بالغرفة التي تغلق.

وفي الفندق بركة سباحة، وحدائق صغيرة عديدة.

أنزلوني في غرفة في الطابق الثاني فأسرعت أصلي الظهر والعصر جمعاً وأنزل متخففاً مما علي من ملابس ولم أودع خزانة الفندق شيئاً مما معي شعوراً بالأمان في المغرب كما فعلت في كل الفنادق التي نزلت فيها حتى في المرات السابقة، ولم يخب ظني قط في أمانة أهل الفنادق.

في المدينة القديمة:

مدينة فاس القديمة كنز من الكنوز العربية لا يقدره حق قدره إلا من يقدر المعرفة وقد عرف قدراً من التاريخ العربي القديم فأحب أن يرى شواهده أو بقاياه ماثلة أمامه.

وذلك بأن الحكومة المغربية قد أبقت مدينة (فاس) القديمة على ما هي عليه منذ العصور القديمة فلم ترض أن تشق فيها شوارع أو أن تمس حاراتها وأزقتها الضيقة بسوء، حتى وإن أصبح السير فيها شاقاً على سكانها في الوقت الحاضر، فقد بنيت ضواحي المدينة أو لنقل قسمها الحديث المسمى (بفاس الجديدة) خارج أسوار المدينة القديمة على أحدث طراز وما على من يريد السكنى فيها إلا أن يفعل ذلك حسب قدرته وطاقته المالية.

أما المدينة القديمة فقد تركت كما تركها الأقدمون، وهذه مزية تنبه إليها الإخوة المغاربة دون غيرهم من العرب أو دون أكثر العرب الذين صاروا يدعون العصرية والتحديث يسرعون إلى هدم الأحياء القديمة في المدن وشق شوارع فيها، وإقامة أبنية عصرية فيها لا طعم لها ولا روح فيها، ولو لم يكن في هذا الفعل الشائن إلا ترك الوطني العريق لمسخ من أجنبي لا علاقة له في الاصل بالبلاد.

وسوف يأتي الكلام على (فاس) القديمة في جولتنا فيها مع رجل مغربي خبير، أما هذا اليوم والساعة جاوزت الخامسة فقد استعجلت جولة فيما قرب من الفندق.

وصلت إلى ميدان قريب ذي حائط منخفض فرايت هنا ما رايته في الدار البيضاء من

جلوس النساء في مجموعات وحدهن وإن كانت أكثرهن سافرات وبعضهن متنقبات أي قد وضعن على وجوههن النقاب حتى لا ترى إلا عيونهن.

البغال في فاس

أما الرجال فإنهم جلسوا على مقاعد المقاهي الشعبية التي هي كثيرة هنا كثرة ظاهرة وعندما رايتهم هكذا خُيِّل إليّ أن البيوت قد خلت منهم في هذه الأمسية من أمسيات الأحد يوم العطلة الأسبوعية، فالمغرب خلاف البلدان العربية يعطل يوم الأحد وليس يوم الجمعة، بل الجمعة للدوائر الحكومية والشركات هي يوم عمل.

لم أطل التجول ولم أبعد عن الفندق وإنما تخيرت مقعداً في مقهاة فجلست فيه أرقب الغادين والرائحين.

ذكريات من فاس:

تداعت الذكريات في ذهني متعلقة بزيارتي الأولى التي كانت الوحيدة لمدينة فاس، وذلك في عام ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م، أي منذ ٢٦ سنة.

كنت على راس وفد من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة مؤلف من ثلاثة أشخاص في زيارة لتونس للاشتراك في مؤتمر عقدته جمعية الجامعات الإسلامية وكانت جامعة الملك محمد الخامس في فاس والجامعة الإسلامية في المدينة هي التي تبنت إنشاء (جمعية الجامعات الإسلامية التي تطورت الآن إلى (رابطة الجامعات الإسلامية).

بغل عليه راكبه في أطراف مدينة فاس القديمة

وكنت وقتها أشغل وظيفة (الأمين العام للجامعة الإسلامية) في المدينة المنورة وهي الوظيفة الثانية في الجامعة بعد وظيفة نائب رئيس الجامعة الإسلامية التي كان يشغلها الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز المفتي العام للمملكة العربية السعودية في الوقت الحاضر.

أما رئيس الجامعة الإسلامية فكان الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ومقره الرياض ورئاسته للجامعة رئاسة عليا فهو لا يتقاضى عليها راتباً، ولكنه مرجع للأمور الكبيرة، إلا أنه كان قد توفي، ولم يحل محله في رئاسة الجامعة آنذاك.

فعقدت (جمعية الجامعات الإسلامية) جلسات دورة لها في تونس وصادف ذلك أول أيام شهر ذي الحجة من عام ١٣٩٠هـ لذا رأيت أنني إذا عدت إلى المملكة فإنني سوف أقضي إجازة هناك لذلك قلت لصديقي وزميلي في الجامعة الإسلامية وعضو وفدها لهذا المؤتمر الشيخ عبدالعزيز بن محمد القويفلي: إنني أريد أن أسير بطريق البر من مدينة تونس حتى أصل الرباط على المحيط الأطلسي فهذا أقل ما ينبغي بالنسبة إلى ما كان يتكبده أسلافنا من العلماء في الرحلة في طلب العلم فوافق على مرافقتي، وغادرنا تونس بالقطار إلى مدينة عنابة في الجزائر حيث لبثنا فيها يوماً وبعض يوم تركناها بعد ذلك مسافرين بالسيارة إلى قسنطينة ثم بسيارة أجرة إلى مدينة الجزائر العاصمة، وبعد ذلك غادرنا عاصمة الجزائر إلى مدينة وهران في غرب الجزائر بصحبة زميلنا وصديقنا الأستا ذ محمد بن إبراهيم بن

عبدالسلام الملحق الثقافي السعودي في الجزائر آنذاك وكان مديراً لمعهد عنيزة العلمي عندما كنت مديراً للمعهد العلمي في بريدة في العقد الثامن من القرن الرابع عشر، وصلينا عيد الأضحى مع بعثة التدريس السعودية التي كانت المملكة العربية السعودية قد أرسلتها إلى الجزائر إسهاماً منها في تعريب التعليم في الجزائر.

ولبثنا مع الإخوة أعضاء البعثة يومين أكلنا فيها من أضاحيهم ثم غادرناها إلى مدينة تلمسان حيث زرناها ومن هناك توجهنا إلى المغرب بالسيارة إلى مدينة وجدة ومنها بالقطار إلى مدية (فاس) هذه، ويؤمئذ أخذت إعجاباً بما رايته فيها من المحافظة على القديم، وتركه على قدمه.

وبعد تلك الزيارة التي مضى عليها الآن أكثر من ربع قرن لم أزر (فاس) إلا هذه المرة رغم كوني زرت أكثر المدن المغربية من طنجة وتطوان في الشمال حتى مدينة العيون في آخر الجنوب.

والشيء الذي لاحظته هنا بوضوح هو أنني رأيت أهل فاس في الزيارة الأولى أصح أجساماً، وأنضر وجوهاً، ورايت نساءَهم أجمل مما هن عليه الآن أضعافاً مضاعفة، ولا أدري تفسير ذلك وما إذا كان صحيحاً وأنه قد حدث شيء في فاس في تربتها أو في مائها أو غذاء أهلها، أو حتى في المرافق الصحية فيها جعلهم كذلك أم إن هذا وَهْم، ولكن هذا ما انطبع في ذهني.

وخيل إليَّ أيضاً أن هذا القسم القديم وهو من الأماكن التي اصطلح بعض الناس على تسميته بالقسم الشعبي من المدينة أكثر ازدحاماً مما كان عليه من قبل، والمقاهي- جمع مقهاة- هي كثيرة إلى درجة يخيل إليك أنهم قد اسرفوا في كثرتها ولكني رأيتها اليوم ممتلئة بالناس، أو تكاد تكون كذلك.

ومن الأشياء المفرحة هنا كثرة المكتبات سواء منها مكتبات الوراقين الذين يبيعون القرطاسية ولوازم المدارس أو التي تبيع الكتب.

ودخلت بعد ذلك سوقاً شعبياً طويلاً مزدحماً بالناس لأنه ضيق.

وقد أذن المؤذن لصلاة المغرب من مسجد قريب فكان الآذان واضحاً مثلما نفعل في بلادنا سريعاً، بدون تمطيط أو تلحين.

ولم ألاحظ أن عدداً كبيراً من الذين في المقهاة وفيهم شيوخ في السن قد قاموا لأداء الصلاة ولم أذهب أنا لكوني مسافراً يجوز لي أن أجمع المغرب تأخيراً إلى العشاء.

يوم الاثنين: ١٤١٦/١١/٢٧هـ:

العادة القديمة:

أفطرت اليوم في مطعم في الفندق جميل البناء فيه النقوش والزخارف والفسيفساء المغربية الأصيلة، والطعام داخل في أجرة الغرفة لا يتقاضون عنه ثمناً.

وفي الثامنة نزلت في تمشية أيضاً حول الفندق مودعاً هذه المنطقة، لأن أهل الفندق قالوا أمس: إنه لا توجد لديهم غرفة خالية إلا لليلة واحدة، وأنهم سيخبرونني في صباح الغد- اليوم- ما إذا كانوا يستطيعون أن يجدوا لي غرفة فيه لأنه محجوز كله منذ اليوم واشتريت في هذا الوقت المبكر جريدة الشرق الأوسط التي اعتدت أن أقرأها يومياً في بلادنا، وذلك في وقت مبكر هو بعد الثامنة بقليل.

وأحييت عادة لي قديمة تركتها منذ دهر وهي أنني عندما زرت القاهرة الزيارة الأولى لمصر في عام ١٣٧٥ أي منذ ٣١ سنة، كنت، اشتري جريدة الأهرام وأجلس في إحدى المقاهي التي يمر بها الناس بكثرة فأقرأ الجريدة وأتفرج برؤية الناس وهكذا فعلت اليوم.

وجدت المقهاة ليس فيها رواد كثر في هذا الصباح المبكر نسبياً ولكنهم صاروا يتزايدون وقرأت جريدة الشرق الأوسط.

ثم عدت إلى الفندق فأخبرني أهله أنني يجب أن أغادره في الساعة الثانية عشرة فأخذت منهم اسم فندق جيد في القسم الحديث من فاس وانتقلت إليه، وذلك في الثانية عشرة والنصف، وقد أمضيت بقية هذا اليوم الاثنين في التسكع في فاس الجديدة وهي حافلة بالمطاعم والمقاهي ولكن ليس فيها روح فاس القديمة من المحافظة على القديم.

وكتبت ما شاء الله أن أكتب، ثم سرت على قدمي حتى أعييت وكنت تغديت على (طاجن) مغربي وهو إناء من الفخار كالقدر الصغير توضع فيه الخضرات مع اللحم والمرق ثم يوضع في نار قوية وهو مغلق فينضج ما فيه بسرعة من دون أن يخشى المرء أن يلحق به ما يكون في بعض القدور التي تصنع من المعادن كالنحاس ونحوه من وسخ في معدنها أو غيره ودفعت قيمة ذلك مع صحن من السلطة الخضراء والشاي الأخضر (٥١) درهماً مغربياً.

جولة واسعة في فاس القديمة:

لم أكد استقر في فندقي الجديد في فاس الجديدة أمس حتى سألت أهله عن مكتب للسياحة يمكنني أن آخذ منه دليلاً يطوف بي أنحاء فاس القديمة، ويعرفني على الأماكن

الأثرية فيها، وقد دلوني على مكتب سياحي قريب من الفندق فحجزت منه لجولة تستمر ست ساعات من التاسعة صباحاً حتى الثانية ظهراً لأنهم ذكروا أنه لا يوجد لديهم اليوم والوقت ضيق فواعدتهم غداً في التاسعة.

وفي الساعة التاسعة من هذا الصباح عدت إليهم فوجدت الدليل شخصاً مغربياً كريماً في الخامسة والخمسين من عمره فيما أقدر، وليس في مظهره ما يتميز به عن بقية المغاربة الذين أعرفهم لا في اللون ولا اللباس ولا اللهجة بالعربية، ومع ذلك ذكر لي أن اسمه (زغرب محمد زغرب) هكذا مثل اسم (زغرب) عاصمة جمهورية كرواتيا، وذكر أنه من أهل السوس الذي يقع جنوباً من مراكش فقلت له: إن معظم أهل تلك الناحية من البربر، فقال: نعم، أنا بربري أعيش في مراكش ووجدته بحراً في المعلومات المتعلقة بمدينة مراكش وحتى في العربية الفصحى من جهة الأمثال والأشعار.

وهذا من عجائب هذا المغرب العربي الذي جرت فيه حركة تعريب هادئة ولكنها جارفة بحيث أصبح الإخوة البرابرة، وهذا تعريف الاولين وليس وصفاً لهم- عرباً كالعرب الأقحاح في لفظهم بالعربية، وفي عدم التعصب للغة أو اللغات البربرية، حتى إن كثيراً من أولادهم صاروا لا يعرفون إلا العربية، لأنهم تعلموها في المدارس وصار الجميع في البيوت لا يستعمل إلا العربية.

وكل ذلك من غير ضجة ولا هيجان إعلامي وإنما محبة في لغة القرآن الكريم التي هي لغة الحواضر والأكثرية من أهل الأرياف في المغرب في الوقت الحاضر.

والأخ زغرب إنسان كريم حقاً، فقد لاحظت أن في إحدى رجليه خللاً ويبدو إذا سار كأنما يعرج، وأخبرني: إنها تؤلمه، ومع ذلك كان لا يمتنع عن الصعود إلى شيء أو الذهاب إليه لما رأى من حرصي على الإطلاع ولو كان ذلك يتعبه.

ركبت مع الدليل الأخ زغرب سيارة أجرة ذاهبين إلى فاس القديمة.

بوابة أبي الجنود:

فحاذينا حياً بأطراف فاس القديمة اسمه (حي المَلاَّح) ولكننا لم ندخله ذكر الأخ زغرب أنه حي اليهود وأنه سمي بذلك لأن اليهود كانوا يتاجرون في الملح، وقد ذهبو الآن عن الحي فبعضهم ترك فاس وبعضهم انتقل إلى فاس الجديدة، وأصبح الحي الآن حياً إسلامياً فيه مسجد يمتليء بالمصلين، وذكر أن هؤلاء اليهود كانوا جاءوا مع العرب من الأندلس بعد سقوطها بأيدي الإسبانيين.

جانب من مدينة فاس (منظر عام)

ثم أوقفنا السيارة عند باب في المدينة القديمة اسمه (باب الجنود) وهو بوابة كبيرة مسنمة السقف على الطراز العربي الأندلسي، وقد بنيت في القرن الثالث عشر الميلادي وهو القرن التاسع الهجري ورممت في عام ١٩١٢م فأصبحت على ما هي عليه الآن.

وهي منسوبة إلى معلم بناء اسمه (أبو الجنود) هو الذي قام ببنائها أي هو المعلم الذي بناها.

وهذه البوابة هي المدخل الرئيسي لمدينة فاس القديمة، ومن الطريف أنها مكسوة بالفسيفساء أو السيراميك على لونين أحدهما هو الأزرق وهو لون المدينة، لأن مدينة فاس تسمى المدينة الزرقاء أخذاً من تسميات المدن بصفات موجودة فيها مثل مراكش الحمراء والرباط البيضاء، وهذا اللون الأزرق هو في إحدى جهتيه وهي الغربية والجهة الأخرى وهي الشرقية مكسوة بفسيفساء، وإن لم ترد الدقة قلت: إنها برخام لونه أخضر لأنه هو اللون الإسلامي جرياً على ما عرف من أن اللون الأخضر هو اللون الإسلامي، أو على الأدق أن اللون المستعمل في الأبنية الدينية الإسلامية هو الأخضر أكثر من غيره، وليس اللون الأخضر هو الإسلامي في أصله أو حتى في طبيعته.

منظر من مكان عالٍ للبيوت في فاس القديمة

وباب (أبي الجنود) هذا هو الباب السادس عشر من ستة عشر باباً في فاس القديمة وهي بوابات مثلما صرنا نعرف في بلادنا الشرقية بأن الباب هو الضيق المعتاد بخلاف البوابة فهي الباب الكبير المعتنى به، وهذه الأبواب دائرة على المدينة.

ويفضي باب أبي الجنود إلى ساحة صغيرة ربما كانت تعتبر واسعة في القديم تسمى أيضاً (ساحة أبي الجنود).

ويقع الباب والساحة بالقرب من سور قديم على مدينة فاس أقامه الموحدون في القرن السابع الهجري أو نحوه لم يجزم الدليل بشيء من ذلك، وهو قوي من الحجارة والطين وتعلوه شرفات ذات رؤس وهي أعاليها، ولا تزال أجزاء من هذا السور الأثري ظاهرة بل إنها بحالة حسنة، وهذا عجيب إلا إذا كان هذا السور قد رمم وأصلح في الأزمنة القريبة كما قال لنا الدليل.

وهو يدور على المدينة كلها.

كان الدليل الحصيف الأخ (زغرب محمد زغرب) يشرح لي ذلك وكنت مستغرقاً في التفكير به، وإذا بي أرى ما يسترعي انتباهي في مجموعة من البغال والحمير تدخل المدينة وتمشي في داخلها فأذكر أن أكثر أزقتها وشوارعها لا تتسع للسيارات ولذلك لا تدخلها السيارات.

ومن الغريب اللطيف أنهم حرموا دخول الدراجات النارية في الأزقة الضيقة فيها، فلا يدخلها إلا دواب الحمل وهي الحمير والبغال، ولكن حتى الركوب على هذه الدواب ممنوع إلا للمعذور من مرض أو نحوه، وعلى جميع سكانها أن يسيروا فيها راجلين.

المؤلف عند أحد باعة المصنوعات الوطنية في سوق مظلل في فاس القديمة

وقد صنعوا ذلك محافظة على الطابع القديم للمدينة.

السوق المظلل:

انحدرنا مع سوق ينحدر بالفعل لأننا كنا في ساحة أبي الجنود في مكان عال نسبياً وهذا السوق عجيب، ولو لم يكن في فاس إلا هو لكان حقيقاً بأن يرحل إليه، فهو ضيق جداً بالنسبة إلى الأسواق المزدحمة بالحوانيت وهي (الدكاكين) وتباع فيه أنواع متعددة متباينة من البضائع يكاد لا يجمع بينها جامع، وهو مزدحم بالمشاة من رجال ونساء صغاراً وكباراً.

سوق مزدحم في فاس القديمة يرى في آخره صومعة مسجد

وهو مظلل ذكرني بسوق كان فيه (دكان) والدي في مدينة بريدة، وكان أول ما عرفته من الأسواق ولكنه أوسع من هذا السوق المغربي مرتين أو ثلاثاً فكان أهل الحوانيت إذا حل وقت الصيف يجمعون فيما بينهم نقوداً يظللونه بها بحيث يضعون عليه عُسُب النخل تحته خشب معترضة من خشب الأثل على السوق حتى إذا ذهب الحر أنزلوا تلك العُسُب- جمع عسيب- وهو جريد النخل

فيه خوصه، وباعوه وقوداً للشتاء وتركوا السوق بدون ظل لأن الشمس مطلوبة في الشتاء للدفء.

وهكذا في كل عام.

وهذا السوق المغربي الضيق قد ظلله أهله بالقصب على طريقة شبيهة بما هو موجود عندنا في القديم.

ومن المفرح أنني رايت أكثر من مكتبة وهي محل بيع الكتب في (دكاكين صغيرة) مثل بقية الحوانيت فيه وهي تعرض كتباً عربية في موضوعات متعددة، ورايتهم يبيعون الفواكه وبعضها له اسم غير الاسم الذي نعرفه مثل الفراولة يسمونها فريز ويبيعونها طازجة من مزارع المدينة بستة دراهم للكيلو، وفاكهة تسمى في لبنان (اكي دنيا) ويسمونها هنا (مزاع) وهي تباع أيضاً بستة دراهم للكيلو، ولحم غنم جيد كتبوا عليه سعره (٥٠) درهماً للكيلو ويساوي ذلك ٢٢ ريالاً وهذا سعر غال بالنسبة إلى سعر اللحم عندنا، وقد عرفت أنه كان يباع بأغلى من هذا السعر في السابق، حتى إن الكيلو الواحد منه وصل إلى ٧٠ درهماً، ولكنه رخص الآن.

وقد قال لي الأخ زغرب ما قاله غيره وهو أن السبب في رخص اللحم هو سنة سنها الملك الحسن الثاني، وهم عرباً وبربراً يعظمونه ويجلونه، وذلك أنه أعلن أنه سوف يضحي بنفسه عنه وعن أسرته وعن بقية أبناء الشعب، وذلك أنه لوحظ أن بعض أهل الغنم كانوا توقفوا عن عرضها في السوق وبيعها إلا بأثمان مرتفعة، وذلك من أجل أن يبيعوها بسعر مرتفع في عيد الأضحى عندما يضطر الناس لشراء الأضاحي، فأعلن الملك الحسن الثاني ما ذكر فانخفضت أسعار الغنم وبالتالي انخفض سعر اللحم من ٧٠ درهماً إلى ٥٠ درهماً، وذكر الأخ زغرب أنه لولا أن الناس يطيعون الملك الحسن الثاني وينفذون قوله لم يكن لذلك أثر ويبقى على ما كان عليه غالياً.

وقال: إذا كان المغاربة قد أطاعوا الملك الحسن الثاني عندما دعاهم إلى المسيرة الخضراء وهي بعيدة وخطرة ولكنها ناجحة كيف لا يطيعونه في أمر الأضحية؟

أحد الأسواق الضيقة في فاس

ورأيت في أول هذا السوق (السلالين) وهم الذين يصنعون السِّلال: جمع سلة وهي كالإناء ولكن من القش والأغصان الدقيقة، وقد كوموا بعضها في صناعة مُتقنة، وبجانبه باعة الزيتون وهو أنواع منوعة عجيبة، سواء ألوانه أو أحجامه، ولا ندري كيفية استطاعتهم أن يكون الزيتون بهذه الألوان المتنوعة العجيبة، ولكن البلاد المغربية تنتج مقادير جيدة من الزيتون وتستهلك منها مقادير كبيرة.

وبائع الفطائر قد عرض فطيرة بالعطر والحلويات والنعناع، وبجانبه بائع الدجاج يبيع الدجاجة الواحدة بـ١٥ درهماً، ورأيته يبيع أجزاء من الدجاجة لمن لا يريد شراءها كاملة، وقال الأخ زغرب: إنه يقطّع الدجاجة للضعفاء.

وحتى الخوخ منه نوع يبيعونه للسلطة وبجانبه نوع من الزهور قال إنه أيضاً يستعمل للسلطة.

والفول الأخضر الذي يستعمل خضاراً في مصر وفي بلادنا على قلة كما تستعمل الفاصوليا والخضار رأيته كبيراً نامياً ذكر أنهم يستعملون الفول هكذا يطبخون الأخضر منه مع المرق وأما الفول المدَمَّس المعروف عندنا وفي مصر فإنه لا يعرف عندهم ولا يستعملونه رغم كونهم ينتجون مقادير كبيرة منه من ذي الحب الكبير.

وذكر أنهم يصنعون أحياناً من دقيق الفول حيث يطحنونه نوعاً من الحساء (الشربة)، وذكر أن الفول الأخضر هذا يقع مبكراً في الربيع قبل الخضرات الأخرى لذلك يستعملونه بجانب الفول يبيعون لوبيا ضخماً ناعماً، مما يدل على خصب المنطقة وكثرة ما تنتجه من الخضرات.

مدرسة العنانية:

وهي منسوبة إلى عنان أحد ولاة المغرب من ملوك المرينيين- نسبة إلى بني مرين- ولا أذكر ما إذا كان يتسمى بالملك أو نحوه وكان بناؤها في القرن الرابع عشر الميلادي، وهي في مسجد يصلى فيه الآن أما المدرسة فإنها معطلة وبناؤها أثري مميز لأنه على طراز إسلامي عريق نفيس، لا يمل المرء رؤيته واستجلاءه.

وهي واقعة في هذه المنطقة القديمة التاريخية من مدينة فاس.

وقلت في نفسي: أين توجد مثل هذه الآثار في إفريقية الغربية التي قدمنا منها، بل إنها لا توجد حتى في أوروبا بهذه الكثرة والوضوح.

الأزقة الأثرية:

المؤلف عند باب منزل ابن خلدون في فاس

واصلنا السير فوصلنا إلى أزقة تاريخية ضيقة حتى أسماؤها أثرية منها زقاق مولاي عبدالمالك، وزقاق مولاي شريف وينطقون بها بإسكان الشين شْريف كالتي تكون قبلها ألف لينة.

وهذه الأزقة الضيقة المغربية فوقها ساباط وهو الغرفة أو نحوها تكون فوق أرض الشارع الضيق أو الزقاق انتفاعاً بذلك وتوسعاً ولكنها مرفوعة بحيث لا تضايق المارة حتى الراكبين على الدواب.

والأزقة هذه مزدحمة وأجمل ما فيها اللباس المغربي الأصيل على النساء والرجال، وملابس النساء فيه أظهر وأغرب، فالمغربية تلبس عدة ملابس تقليدية طويلة سابغة ومع ذلك هي جميلة ووفق ذوق معين.

لقد استمتعت بالجولة وكان الأخ زغرب يتعداني في بعض الأحيان ظناً منه أنني أكتفي بالمرور والرؤية من دون وقوف واستجلاء، وأنا لا يكفيني ذلك، بل أقف أتأمل وأصور والشعب المغربي بأدبه في التعامل مع الأجانب والغرباء ليس فيه من نظر نظرات غير ودية فضلاً عن أن يستنكر أو ينكر ذلك.

منزل ابن خلدون:

تتألف مدينة (فاس) القديمة من قسمين أحدهما يسمونه عدوة القرويين وهو في الغرب والثاني عدوة الأندلس وهو في الشرق بالنسبة إلى النهر الصغير الذي يقسم مدينة فاس القديمة، ونحن الآن في عدوة القرويين منحدرين إلى جهة النهر وإن يكن بقيت بيننا و بينه مسافة من الغرابة كبيرة.

وأول ذلك المنزل الذي كان نزل فيه العلامة ابن خلدون صاحب التاريخ الذي خلدته مقدمته باعتبار أنه أبو علم الاجتماع والتاريخ مطبوع متيسر ولكنني أجزم أن كثيراً من أبنائنا المتعلمين لم يقرؤه وربما لا يعرفون عنوانه وهو (كتاب العبر، و ديوان المبتدأ والخبر، في أ يام العرب، والعجم و البربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) وفي مكتبتي نسخة منه مطبوعة بمطبعة بولاق في القاهرة عام ١٢٨٤هـ في سبعة مجلدات، أما ابن خلدون نفسه فإنه معروف للجميع أو على الأدق اسمه معروف للجميع.

وابن خلدون أندلسي الأصل هاجر إلى المغرب وتونس والقاهرة.

ومن الطريف أن الأخ (زغرب) دليلي السياحي عرف لي ابن خلدون بأنه ابن خلدون السيسولوجي ولا شك أنه كان يقول ذلك للسياح الأجانب، إلا أنه أضاف تعريفاً عربياً واضحاً وهو أنه واضع علم الاجتماع.

وذكر أن ابن خلدون درس في جامع القرويين وسكن هنا في هذا البيت، ولكن لم توضح اللوحة مدة سكناه فيه حسبما هو مكتوب عليه بالعربية تحتها الإنكليزية، وإنما كتبوا عليه تاريخ ولادة ابن خلدون ووفاته، وأن ذلك في عام ٧٣٣هـ إلى عام ٨٠٨ هجرية أيضاً.

الدليل السياحي (زغرب محمد زغرب) في باب منزل ابن خلدون في فاس

يبدو البيت معتاد المظهر ولا يبدو عليه أي احتفال غير تلك اللافتة التي تعلو مدخله وتبين أنه منزله، وأنه سكن فيه.

والبيت مثل سائر البيوت، بل مثل أكثر البيوت في الأحياء العريقة من المدن العربية القديمة كالقاهرة ودمشق ليس له مقدمة مكشوفة، و إنما يدخل الإنسان إليه فيجد نفسه في مكان مسقوف، ولاحظت أن منزل ابن خلدون هذا فوقه طبقتان أو ثلاث، ولم أدخل إلى داخل البيوت المغربية في هذه المناطق الأثية لأنها مسكونة، و قد وجدت عذراً في كون البيت هذا قد نزله العلامة ابن خلدون في وقت من الأوقات مضت عليه أكثر من ستمائة سنة، فأدخله لأستجلي داخله، ولكن الأخ الدليل (زغرب) قال: هذا البيت مسكون الآن وفيه

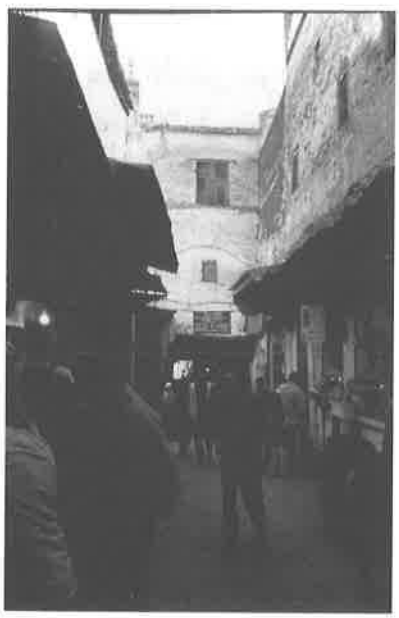

أبنية فوق زقاق في فاس

ثلاث (عوائل) ولا يجيز العرف أن يدخل داخل أجنبي عليهم.

وظاهر ان الأسر التي تسكن فيه تسكن في طبقاته المتعددة، فقلت له: أرجو أن تستأذنهم فتقول: إن هذا أخ لكم جاء من مكة المكرمة ليرى داخل هذا البيت، فقال: أعرف أنهم لا يأذنون لأنهم عوائل محترمة.

فقلت: إن رؤيتي للبيت لا تنافي احترام أهله، وهنا خرجت مصادفة امرأة منه متنقبة لا يرى من وجهها إلا خط ضيق فيه عيناها وما بينهمامن أعلى انفها، فكلمها برغبتي، فهزت رأسها علامة النفي أو الامتناع، وقال: امتنعت، وأظنه لم يقنعها.

وقال لي بعد ذلك إن سكان هذه المناطق القديمة حريصون جداً على رعاية تقاليديهم القديمة، ولا يفرطون في شيء منها!

وباب البيت من الخشب وهو نفسه مبني بالآجر الذي يمسكه الطين، ولكنه مطلي بمادة تشبه الجص لتجميله ووقايته من العوارض الجوية.

ومن الطريف ما ذكره الدليل من أن ابن خلدون كان يذهب إلى القرويين راكباً بغلاً من البغال، مع أن القرويين لايصح وصفه بأنه بعيد من هذا البيت وقد ذهبت لجامع القرويين بعد ذلك مع الدليل ونحن نسير على أقدامنا ضمن هذه الجولة الطويلة.

هذا وجميع الأزقة مبلطة بحجارة صغيرة لاسيما أن بعضها منحدر لابد من رصفه بالحجارة لأنها أبقى على مر السيل، وأقل انزلاقاً وهو ايضاً كان مبلطاً قبل إدخال الزفت في تبليط الشوارع.

وعلى أيمن الزقاق أو أيسره حاشية منخفضة قليلاً أعدت كذلك ليجري فيها ماء المطر فيذهب إلى نهر فاس.

الحمام العام:

مررنا في زقاق ضيق بحمام عام كتبوا عليه بالعربية (حمام عمومي) وذلك أنه لا توجد حمامات خاصة في هذه البيوت القديمة كما قال الأخ الدليل.

والحمام هذا هو الذي صار يعرف في أوروبا بالحمام التركي، والأتراك أخذوه من العرب.

ومن الطريف أنني رأيت كومة ضخمة من نشارة الخشب عند بابه وهي التي يوقد منها الحمام وخزانات للماء أيضاً مما يستعمل فيه.

وذلك أن الحمام العمومي يدخله الداخل فيخلع ملابسه ويلبس فوطة يعدها صاحب الحمام وإذا أراد أن يحضر فوطة معه فلا مانع ثم يدخل وليس عليه إلا الفوطة التي تشبه

الإزار إلى غرفة قد سخنت بالنار بحيث تجعل عرقه يسيل، وبعد أن يطمئن صاحب الحمام إلىَ أن الداخل قد سخن جسمه ولانت بسبب ذلك الأوساخ التي على جسمه أو ربما تكون سالت، نقله إلى غرفة أخرى ساخنة أيضاً فصار يغسل جسمه بماء ساخن يزيل بذلك عنه الأوساخ والأقذار التي قد تكون تراكمت عليه.

وهي طريقة جيدة للتنقية مستعملة في المدن الإسلامية منذ القديم حتى قالوا: إن بغداد في عهد ازدهارها فيها عشرة آلاف حمام إلا أن للحمام آدابه والعادات المتبعة فيه.

وهنا في هذه المدينة القديمة يوجد حمام (عمومي) كما كتبوا عليه للرجال وهو هذا وغير بعيد منه حمام عمومي للنساء لا يدخله الرجال.

الرحا والتحية:

مررنا بمحل كتبت عليه كلمة (رحت) فقال الأخ (زغرب) إنها الرحا التي يطحن فيها القمح وإنها تسمى (رحا الشمس) يطحن فيها القمح بعد العصر فيسمى ذلك (التحية) ويطحن هنا في الصباح فيسمى الأنقية، أي أن كل وقت للطحن فيه اسم.

هكذا قال، ولم أفهم ذلك حق الفهم.

ولا أدري ما إذا كانت تلك الرحا تطحن للناس بمعنى أن فيها عاملاً أو عمالاً يطحنون للناس بالأجر أم أن الناس يطحنون ما يحتاجونه بأنفسهم بأجر أو بدون أجر، والمفهوم لي أن فيها أكثر من رحا واحدة.

والذي عهدناه في بلادنا في القديم أن كل بيت فيه رحا خاصة بأهله يطحنون فيها القمح لأنفسهم وهي لازمة لأنه لا يوجد (أرحاء) عامة إلا ما قد يوجد في (رحا) يسمونها (رحا السبيل).

والسبيل هنا: الوقف، وذلك بأن بعض أهل الخير قد يوقفون رحا على من لا تكون لديهم رحا تأتي المرأة إليها وتطحن فيها القمح الذي معها مجاناً.

ولذلك قالت العامة من بني قومنا في أمثالها: (فلان مثل رحا السبيل ما ندري من هو في يده)، يقولون ذلك لمن يكثر طالبوه أو من يدعونه إلى شرب القهوة أو تناول الطعام.

الفسيفساء الأندلسية:

صارت الفسيفساء تعرف الآن بالسراميك، ولكن الفسيفساء هي الملونة عدة ألوان منه بمعنى أنها قطع صغيرة من الفخار الملون يجمع بعضها إلى بعض فتؤلف أشكالاً فنية جميلة.

وقد رأيت معملاً لها وهو محل واسع يفتح على باب الشارع وقد عرض نماذج منها للبيع، وشاهدت بعض مراحل صناعتها وهي شاقة تتطلب صبراً وذوقاً فنياً.

ووجدت في المعمل نفسه شواهد قبور معدة للبيع وهي مكسوة بالفسيفساء بشكل جميل، لولا أنها تذكر بشيء غير جميل وهو الموت ومفارقة الحياة.

الفندق الذي في وسطه الدواب:

مررنا بفندق قديم غرفه دائرة على صحن أرضي مكشوف قد وقفت فيه الدواب التي تحمل النزلاء من البغال والحمير، ووقوفها فيه هو بديل من وقوف السيارات التي ربما يكون بعضها مملاً عند الفنادق القديمة.

ووقوف الدواب هنا أو وجودها في هذا الفندق ليس لمجرد المنظر والمحافظة على التقليد وإنما هو للحاجة لأن السيارات لا تدخل المنطقة ولابد من وسيلة للركوب لمن يريدون الانتقال والوسيلة المسموح بها هنا هي الدواب.

لقد فكرت في الأمر وقلت في نفسي: لو استقبلت في أمري ما استدبرته ما نزلت إلا في هذا الفندق من أجل أن أتمثل نزول الناس في الفنادق القديمة ولكي أعيش يوماً أو يومين في ظل هذا المحيط الذي انتجته مدينة إسلامية قديمة.

ولكنني عندما أبديت للأخ الدليل (زغرب محمد زغرب) رغبتي كتم ضحكة كادت تفلت منه وقال: كان هذا فندقاً قديماً، وأما الآن فإنهم جعلوا غرفه حوانيت لبيع الزبد والزيتون بالجملة لذلك لا تراها ظاهرة!

وتبدد حتى ذلك الحلم الجميل بالنزول في فندق من قلب التاريخ.

ومررنا بفندق آخر ضيق ولابد لمن يسير في هذا السوق أن يكون منتبهاً للبغال التي تأتي من خلفه لأنها كثيرة فيه وإن لم تزدحم الأزقة بها ولكنها هي قد تتقابل فيضيق الزقاق بها وبالمارة.

خبز المستورات:

مررنا بزقاق ضيق متفرع من السوق الضيق فهو أضيق منه حتى أنني استطعت أن أضع إحدى يديَّ على حائطه الأيمن والأخرى على حائطه الأيسر بدون عناء.

وقد رأيت فيه عجباً وهو أن الأخ (زغرب) رأى عجيناً مغطى بغطاء من القماش رقيق وهو في صحن فأخذه وذهب به إلى فران قريب، وقال لي: هكذا تفعل النساء المستورات في هذه الأحياء فالواحدة منهن لا تجرؤ على الذهاب بالعجين إلى الفران، ولذل يجب عرفاً على أي رجل أو طفل مميز أن يأخذ هذا العجين ويعطيه صاحب الفران ولذلك يتكلم بشيء ولا يحتاج الأمر إلى أن يقول له: إنه من البيت الفلاني حتى وإن كان يعرف البيت ولا الزقاق الذي وجده فيه لأن صاحب الفرن يعرف كل خبز من علامة تكون في العجينة أو من الصحن الذي فيه العجينة، وهو أي صاحب الفران ملزم عرفاً أن يعيد الخبز إلى البيت الذي خرج منه عندما كان عجيناً ويتسلم منه أجره، أو يقيده على أهله إن كانوا اتفقوا معه على أن يخبز لهم بالشهر.

وبذلك يأكل أل البيت في كل يوم إذا شاءوا خبزاً طرياً نظيفاً.

وهذه عادة طريفة.

حومة الشرابيليين:

والكلمتان تحتاجان إلى تفسير، فالحومة هي الحارة أي الحي الصغير و(الشرابيليين): جمع شرابيلي وهو الذي يصنع الشربيل وهو حذاء خاص للنساء يصنع في هذه المحلة وعندما سمعت هذه الكلمة تذكرت كلمة (زربول) وهو خف قديم كان بنو قومنا يصنعونه مع جوارب صوفية غليظة خشنة تصنع في البلاد يضعون فوقها جلداً ويخرزونها لكن (الزاربيل) التي في بلادنا يلبسها الرجال في العادة وقلما تلبسها النساء، وهذه الشرابيل المغربية خاصة بأحذية النساء.

وفي حومة الشرابيليين هذه زقاق ضيق جداً رأيت صبياً عند باب بيته فيه فسألته عن اسمه؟ فقال مراد والتقطت له هذه الصورة.

وبدت صومعة مسجد أنيقة من هذا الزقاق الضيق جداً فذكروا لي أنها صومعة (مسجد الشرابيليين) الموجود في الحي وتاريخ بنائه عام ١٢١٦هـ ولا يدرى ما إذا كان هذا التاريخ هو تاريخ إنشائه أم تجديد بنائه.

بالك بالك:

عدنا إلى السير في السوق الضيق جداً، فسمعت هناك ما كنت سمعته في الرباط من مناداة الذين يسوقون البغال والحمير وهم يقولون: بالك، بالك، يخاطبون الشخص السائر على قدميه، وكل الناس هنا يسيرون على أقدامهم، يحثونهم على أن يلقوا بالهم، بمعنى أن ينتبهوا إلى البغل أو الحمار، وحمرهم كبيرة جريمة لئلا يزحمه أو يدوسه، أو يزحمه الحمل الذي عليه.

وهذا أعادني إلى عهد قديم وهو عهد الصبا في مدينة بريدة حيث كان الجمالون- بالجيم أصحاب الإبل- والحمالون بالحاء المهملة وهم الحمارون أصحاب الحمير ينادون بمثل ذلك في أسواق بريدة، بالك، بالك، ينبهون الناس بذلك ليفسحوا الطريق لمرور البعير المحمل بالحطب ونحوه، والحمار الذي عليه حمل كبير الحجم.

وسمعتهم يزجرون البغل لحثه على الشمي بلفظ (إرّرا) وكذلك الحمار كأنها هي كلمة (حَرّ) التي كان بنو قومنا يزجرون بها الحمار في مثل هذه الحالة.

ورأيت في هذا السوق في (حومة الشرابيليين) محلات اثنين أو ثلاثة تبيع الأحذية المستعملة، والأحذية القديمة، قال الدليل الأخ (زغرب) إنهم يبيعونها للمعدومين يريد المعدمين وهم الذين فقرهم شديد، بحيث لا يستطعيون شراء الأحذية الجديدة.

ورأيت مطعماً فاخراً واسعاً في هذه المنطقة القديمة كل ما فيه بديع وغالٍ وقد كسوا حيطانه بالفسيفساء الزرقاء الغالية، وهو مطعم غالٍ بالفعل، ويقدم الأطعمة المغربية الخالصة.

ووجود مثل هذا المطعم النظيف المعتنى به مناسب في هذه المنطقة التاريخية التي يقصدها السياح، وبالقرب منه صناع الجلود وما صنع منها مثل الحقائب الجلدية والوساتد وحتى الدشوت- جمع دشت- وهو شبيه بالمحفظة من الجلد له أزارير ثلاثة في كل جهة ازرار توضع فيه الأوراق المبعثرة وكنا نستعمله في وقت الطلب في بريدة، بحيث إن المرء منا إذا سمع من شيخه فائدة علمية أو قرأها في كتاب كتبها في ورقة مفردة أو ورقتين على سبيل المثال ووضعها في هذا (الدشت).

وقد تحول هذه الدشوت إلى كنوز من المعرفة والفوائد العلمية لأنها تكون فيها في الغالب أوراق لم تنقل من كتاب، وربما لا تكون سجلت من قبل، مثل قصيدة أو رسالة صغيرة من عالم أو كتاب من إنسان مهم كالأمير أو نحوه.

وهم هنا في المغرب رأيتهم يعتنون بها فيزينونها بالنقوش والأشكال، وأحياناً ينقشونها بما يشبه الذهب من مادة في لون الذهب وشكله.

سوق العطارين:

وصلنا إلى سوق العطارين ويراد بهم هنا أصحاب حوانيت العطارة، وهم الذين يبيعون الأشياء المنوعة المختلفة التي تقل حاجة الناس إليها في الاستهلاك اليومي، وليس المراد بذلك باعة العطور، و(سوق العطارين) ضيق وليست الحوانيت فيه كثيرة، لأن العطارة نفسها قد انقسمت إلى عدة مهنٍ ومن ذلك:

سوق العشابين:

المؤلف عند دكان العشاب حمده في فاس

بجانب سوق العطارين، والعشابون هم الذين يبيعون الأعشاب البرية والبستانية المفيدة بغرض الاستشفاء بتناولها أو إدخالها في الأدوية.

وسوق العشابين مثل سوق العطارين مكتوب عليه اسمه بالعربية، ومرخص لأهله بمزاولة المهنة وبيع الأعشاب الطبية.

وقد عجبت من أحد الحوانيت حيث رأيته كبيراً حافلاً بالأعشاب الطبية والحبوب الطبية الطبيعية إلى درجة صار لا يوجد فيه مكان خالٍ لأي عشبة أخرى، وظني أنه يأخذ من مستودع له ويضع في هذا الدكان.

وقفت عند هذا الحانوت التي كتب عليه اسمه بالعربية، ولكن بطريقة غريبة (العشاب

ح) هكذا كتب على الحانوت، فسلمت عليه وقلت له: أرجو المعذرة فأنا غريب وأحببت أن أعرف بعض الأعشاب التي عندكم لأقارن بينها وبين الأعشاب في بلادنا (المملكة العربية السعودية) فرحب بي بحرارة، رغم وجود أناس يشترون منه، ولما فرغ منهم سألته عن هذه اللافتة (العشابح) ماذا تعني، فقال: تعني العشاب حَمْده فأنا اسمي (حمدة بن شعَرون عبدالجليل) ولكنني أزيدك معرفة، انظر إلى هذه اللافتة وإذا بلافتة صغيرة مثل الأولى ولكنها جديدة قد كتب عليها: (العشاب، ح، ح) وقال: ح الأولى رمز لاسمي (حَمْده) والثانية: رمز لكوني (حاجاً) قد حججت بيت الله الحرام في العام الماضي أو قال الذي قبل الماضي.

ثم وقفت عند عَشَّاب آخر حانوته أكبر من الأول وهو مجاور له فوجدت عنده (شيحاً) وهو الشيح المعروف عندنا لم يتغير ويدخله المتطببون الشعبيون في بعض الأودية عندنا حتى إنه شاع أخيراً أنه دواء نافع لمرض السكر، وقد حملهم على ذلك ما فهموه من كون السكر حلواً وكون الشيح مر المذاق، وظنوا أن مرارته تقاوم حلاوة السكر في الجسم، وهذا وهم بطبيعة الحال.

سألت العشاب عن الجهة التي حصلوا منها على الشيح فذكر أنها المغرب ولكنه يأتي إليهم من مكان بعيد عن مدينة (فاس) وأظن أنه يقصد بذلك جهة من جهات الصحراء لأنه شجر صحراوي ينبت بالصحراء وهو كثير في بلادنا ولا تأكله الماشية لمرارته، إلا إذا اضطرت إلى ذلك.

وقد ذكرت أنني رأيت الشيح، بل ويحتفي به في أماكن عديدة متباعدة من العالم منها بلاد التبت، فقد رأيت فس سوق عاصمتها (لاسا) الشيح يباع مع غيره من أنواع من الشجر والعشب وأخبرني المرافقون من أهلها أنه يباع هنا بثمن غالٍ.

كما رأيته في معمل للأدوية تملكه أسرة مسلمة اسمها (أجمل) في مدينة جوهايي في أقصى ولاية أسام الواقعة في أقصى شرق الهند، وذكر لي القائمون على المعمل أن الشيح هذا وله اسم آخر عندهم من أنفس الأشجار الطبية عندهم وأنه لا ينبت في الهند ولكنهم يجرون تجارب على زراعته فيها، وقد ذكرت ذلك مفصلاً في كتاب: (على أعتاب الهملايا) من سلسلة الرحلات الهندية، كما ذكرت ما قبله في كتاب: (على سقف العالم) من سلسلة الرحلات الصينية.

هذا ورأيت في دكان العشاب رخصة رسمية من الجهات المسئولة تسمح له بأن يبيع الاعشاب في حانوته.

ومن الغريب بالنسبة لي أنني وجدت المحل عامراً بالمشترين والسائلين عن الأعشاب على خلاف ما كنت ظننته.

ورأيت عنده من الأدوية الشعبية المفردة التي اعرفها (الحبة السوداء) التي نعرفها ونزرعها في بلادنا ويبيعون الكيلو الواحد منها بـ٤٠ درهماً ويساوي ذلك نحو ١٨ ريالاً سعودية.

قيصارية الكفاح:

رأيت مكاناً عليه لافتة تقول: (ذكرى حريق قيصارية الكفاح) ذكروا أن هذا الحريق حدث في ١٩٥٤/٩/٢٥ والذي يهمني من ذلك هي لفظة (قيصارية) فنحن نقول له: (قيصرية) ونريد بذلك مجموعة الحوانيت التي تكون في مبنى واحد أو أكثر من مبنى ولكنها ليست في شارع مفتوح.

وكانت هذه اللفظة شائعة الاستعمال في الحواضر الإسلامية في الشرق العربي من القرون الوسطى بلفظ (قيسارية).

ومررنا بحوانيت خاصة بالأحذية الشعبية المعروفة التي تستعمل بمثابة النعل وهي على هيئة خف، و فيها ما هو للرجال وما هو للنساء والأطفال.

ولاحظت هنا شيئاً جيداً وهو أن أهل الحوانيت لا يلحون على من يقف عندهم بالشراء ولا يبدون أمامه أي قول مثل أن يسألوه عن بلده أو غرضه من المجيء إلى هذه البلاد.

مدرسة العطارين:

مدرسة العطارين في فاس

وهذه مدرسة منسوبة إلى سوق العطارين، أو حارة العطارين التي سبق ذكرها، وهي مدرسة تاريخية مبنية على طراز عربي مغربي عريق، ولذلك يأتي السياح والأجانب لزيارتها ويدخلونها مقابل أن يدفعوا عشرة دراهم رسماً للدخول، وهذا يساوي أكثر قليلاً من دولار أمريكي، ورأيت في قسم منها طلاباً يدرسون على الأرض مثلما كان عليه الحال في القديم ويرفعون أصواتهم بالقراءة مما ذكرني بكتاب درست فيه أول ما درست وعمري خمس سنين لأنه كان واقعاً في جوار بيتنا في بريدة.

جامع القرويين:

(جامع القرويين) في فاس مثل الجامع الأزهر في مصر، ولكنه أقدم عهداً من الأزهر وهو كالأزهر جامع صار جامعة، درس به عشرات الألوف من العلماء على مر التاريخ ومن أولئك العلامة ابن خلدون كما سبق.

ولذلك لابد لمن يزور فاس أن يزوره وقد زرته في المرة السابقة قبل ٢٦ سنة، ولكنه قد رمم وأصلح حتى صار أحسن مظهراً مما كان عليه من قبل، وإن لم يتناول الإصلاح هيكله ولا شكله العام.

آنستني عند مدخل جامع القروين الخارجي لافتة باللغة العربية تقول بالنص: (مسجد القرويين، أسسته فاطمة الفهرية بتاريخ ٢٥٤هجرية).

من الطريف الغريب أنني رأيت طوائف من السياح الأوروبيين أو ذوي المظهر الأوروبي قد وقفوا عند باب الجامع الخارجي ينظرون إليه من بعد، لأنه لا يسمح لهم بدخوله مهما دفعوا من رسوم كما لا يسمح بدخوله إلا للمسلمين.

وهذا خلاف المتبادر للذهن لأن المبالغ التي تجمع من السياح تكون كبيرة في العادة، وهي ليست في مقابل جهد مبذول من المسئولين عن الجامع.

ولكن الإخوة المغاربة المسئولين عن الجامع أخبروني أنهم لا يسمحون بدخول هؤلاء وأمثالهم إلى المسجد مهما كان الثمن.

وليس عليه أية كتابة غير العربية.

دخلت إلى المسجد مع الباب الخارجي الذي يفضي إلى صحن غاية في النظافة وتبين عليه العناية العظيمة حيث هو مبلط برخام أزرق وأبيض في تناسق فني عجيب والمسافات كبيرة.

كان معي الأخ الدليل (زغرب محمد زغرب) ولكنه رأى المسئول عن المسجد واسمه (إدريس العلمي) فأسلمني إليه واستراح مني فترة وهو يقول: إن الشيخ إدريس يعرف عن المسجد أكثر مما أعرفه وهذا صحيح.

كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة ظهراً، وليس وقت صلاة مفروضة ولكنني وجدت طائفة من الناس يصلون نافلة.

ورأيت ميضأة في وسط صحن المسجد فإذا بها فاخرة على الطراز الأندلسي وهي في حد ذاتها تحفة ينبغي أن يطلع عليها الأجانب ليتمثلوا كيف كان المسلمون في القديم يتوضؤن ويغسلون أطرافهم وحالة المكان الذي يتوضؤون فيه.

المؤلف مع السيد إدريس العلمي في جامع القرويين

سار معي الأخ إدريس العلمي يشرح لي معالم المسجد شرح الخبير بحاضر المسجد وماضيه التاريخي فدخلنا إلى المسجد الداخلي المسقوف وإذا بأعمدته كما عهدتها غليظة لأن هذه كانت الطريقة الشائعة في القديم إلا حينما تكون الأعمدة من حجارة قوية خاصة فإنها تكون رقيقة رشيقة وليس الأمر كذلك في أعمدة هذا المسجد.

ووجدت في المسجد الداخلي المسقوف جماعات من الشيوخ الذين استند بعضهم على العمد العريضة وفراشه حصير دقيق محكم حتى أنهم كسوا أصول الاعمدة من هذا الحصير مثل الفراش.

وبعض كبار السن هؤلاء يتلون القرآن فيما بينهم وبين أنفسهم، وبعضهم يقرأ كتاباً معه كانما هو يذاكر درساً من الدروس.

المؤلف في جامع القرويين يرتدي جبة العلماء في الجامع بجانب السيد إدريس العلمي

ورأيت حلقة صغيرة من طلبة العلم عند شيخ جالس داخل خزانة حيطانها منقوشة بنقوش أندلسية أو مغربية تقليدية قديمة، كتبت عليها هذه العبارة: (الحمد لله وحده، أمر بعمل هذه الخزانة السعيدة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين عبدالله فارس،أيد الله أمره، وأعزّ نصره، بتاريخ شهر شوال ٧٥٠هجرة).

والكتابة بخط كوفي وهو الخط الذي انحدر أو لنقل تطور منه الخط المغربي الحاضر الذي لم يطرأ عليه تغيير كبير، ومن أهم ما يتميز عن خطنا العربي المشرقي أن الفاء فيه تنقط بنقطة واحدة تحت الحرف، وإن القاف فيه تكون عليها نقطة واحدة فوقه.

المؤلف تحت الثريا في جامع القرويين في فاس

وتحت هذا الكتاب بخط كوفي خالٍ من النقط والإعجام.

(الحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا).

والخزانة يراد بها ما يشبه الغرفة الصغيرة ذات الحيطان ولكنها غير مسقوفة ولها باب ويقصد منها أن تكون شبيهة بالفصل الدراسي الذي يفصل الدارسين عن غيرهم.

ولما ذكرت للأخ السيد إدريس العلمي أن عدد الطلبة قليل وأن كرسياً آخر مكسواً بالقماش الأخضر ظاهر أنه معد لجلوس شيخ مدرس ليس عليه أحد، قال: لقد ذهبوا للغداء ويعودون في الساعة الثالثة.

وانتهزت فرصة وجودي في الجامع فجلست على الكرسي المكسو بالقماش الأخضر جلسة الشيخ المزيف ولكنها جلسة غريبة بالنسبة إليَّ لذلك سارع الأخ إدريس العلمي والتقط لي هذه الصورة.

وقال لي الأخ إرديس العلمي: لقد كان ابن خلدون يدرس في هذه الخزانة- بتشديد الراء أي يجلس في درسه للطلبة فيها.

وقد سبق أن ذكرت أننا مررنا بالدار التي كان يسكن فيها ابن خلدون، عندما كان مقيماً في فاس.

وقمت بجولة في أنحاء المسجد، ولما رأى الأخ إدريس العلمي إعجابي بالمسجد وبالعناية الظاهرة فيه وحرصي على معرفة تاريخ ما أراه، قال لي: سوف أريك ما لم يره غيرك من أمثالك، سوف أفتح لك وأريك منبر المسجد التاريخي الذي مضى على صنعه أكثر من ألف سنة، وقد وضعوا له عجلات يسير عليها فيخرجونه إلى مكانه بجانب المحراب ليخطب عليه الخطيب يوم الجمعة، ثم يعيدونه إلى مكان خلف المحراب مع باب معد لذلك، وذلك محافظة عليه من أن يمسه من قد يؤثر فيه أو من أي عوارض أو حوادث أخرى.

وفتح لي الباب وكان يحمل معه مفتاحه في جيبه وأدخلني المكان الذي فيه المنبر،

المؤلف في محراب في جامع القرويين في فاس

ورأيته من الخشب القوي لم يتأنق صانعوه في صناعته من ناحية النقش أو التزويق وإنما صنعوه متقناً بدليل أنه بقي مئات السنين على حاله.

وقد فهمت إن لم تخني الذاكرة أن المنبر الخشبي هذا ربما لايخرج حتى في صلوات الجمعة المعتادة وإنما يخرجونه في المناسبات المهة كالعيدين أو بعض الجمع دون بعض، ولا أحق ذلك الآن.

وهذا من غرائب أفعال الإخوة المغاربة في محافظتهم على الآثار المهمة.

وقالوا لي: إنه حتى البيوت الخاصة إذا احتاجت إلى إصلاح فإن أصحابها لا يستطيعون ذلك، إلا إذا أذنت لهم البلدية وهي لا تأذن بأن يغير القديم عن قدمه وإذا كان الإصلاح ضرورياً أصلح البيت على ما كان عليه سابقاً دون تغيير.

كنت أود أن أبقى في هذا المسجد العظيم بمعناه وبمبناه لو لا أن الوقت يداهمنا و كان الأخ (زغرب بن محمد) قد ذكر أن أمامنا أماكن أخرى عديدة في فاس ينبغي الإطلاع عليها.

فندق الطاونيين:

فندق الطاونيين في فاس

وهذا اللفظ غريب لم أفهمه إلا عندما أ خبرني الدليل أن المراد بالطاونيين أهل تطوان في شمال المغرب، سمي بذلك لأن أهل تطوان كانوا يسكنون فيه إذا قدموا إلى مدينة فاس.

ويتألف من عدة طبقات ومع ذلك جميع سقوفه من الخشب تحملها خشب قوية معترضة مغروسة أطرافها في الحيطان التي يقوم عليها السقف.

وكل الخشب فيه منقوش ومزين بنقوش إسلامية عريقة وهو نفسه عريق البناء فقد ذكر لي الدليل أنه بني في القرن الرابع عشر الميلادي، وأنه تغير في هذه المدة ولكنه لم يتبدل، يريد بذلك أنه قد لحقه بعض التغيير في الشكل لكنه في جوهره وأساسه لم يتغير.

أما تطوان وهي مدينة في شمال المغرب وعاصمة منطقة الريف فقد زرتها وذكرت ما شاهدته فيها في كتاب: (الإشراف على أطراف من المغرب العربي) وذلك عندما قدمت إليها من مدينة سبتة التي تحتلها إسبانيا.

ميدان الصفارين:

مثل هذه التسمية (الصفارين) مذكورة في كتب الثقافة العربية في القرون الوسيطة ولكنها كادت تنقرض في المشرق العربي و حافظ عليها أهل المغرب فيما حافظوا عليه من تسميات ومسميات فهم حافظوا هنا على التسمية (الصفارين) وهم العاملون في صناعة الصفر الذي يراد به النحاس، فالصفارون هم الذين يعملون الأواني من النحاس أو المعدن، وأذكر أننا في بلادنا كنا نسميهم (الصّنّاع)- جمع صانع ولكن العامة تجمعهم على (صنانيع) بوزن (فعاعيل) فسوق الصنانيع كان معروفاً مشهوراً في بريدة وقد تطور إلى اسم الصناعة حيث سمي الشارع الذي ضم سوقهم وسوق (الخرازيز)- جمع خراز إلى (شارع الصناعة) وهو من الشوارع الرئيسية المشهورة في بريدة.

زقاق ضيق في فاس ترى منه صورة صومعة أندلسية جميلة

أما ميدان الصفارين في فاس فإنه واقع غرباً من (جامع القرويين) وقد وقفت على العاملين فيه ورأيتهم يضربون النحاس بمقارعهم الحديدية الصغيرة كما كان إخوانهم في بلدتنا بريدة يعملون، وقد اختلطت أصوات ضربهم بالمقارع وهو يجدون على عملهم، وقد علق بعضهم على مصنع وهو الحانوت الذي يعمل فيه أنواعاً مما أنجزه من أواني النحاس وأدواته يعرضها للبيع، وهي متقنة الصنع تدل على ذوق رفيع.

ومن ذلك أوانٍ من النحاس الأحمر وأخرى من النحاس الأصفر، وبعضها منقوش أو محلى بنقوش فنية دقيقة.

سوق الصّبَّاغين:

بعد (ميدان الصفارين) وصلنا إلى سوق الصباغين وليس طويلاً وليست الحوانيت فيه كثيرة وإن كانت متعددة وهم يصبغون الصوف والحرير والقطن.

ورايت ما صبغوه ظاهره جيد، ومنوع الألوان، ولا أعرف ما وراء ذلك، ولكنهم ذوو صناعة عريقة، قد ظلوا محافظين عليها ووجدوامن يشتري منهم ويشجعهم بذلك على الاستمرار فيها.

ولاشك في أن هؤلاء وأمثالهم من أرباب الصناعات العريقة هم من التراث الوطني المغربي، بل هو كان جزءاً من المدنية الإسلامية القديمة تنبغي المحافظة عليه، وصيانته عن الضياع أو الإندثار.

نهر فاس أو الوادي:

و(الوادي) هو اسم النهر الذي يشق مدينة فاس يفصل بين عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين لا يعرفونه إلا بهذا الاسم أي (الوادي) وهو في الحقيقة نهر صغير عندما رأيته عجبت من وصف بعض الأقدمين له بأنه نهر كبير، فإما أن تكون مقادير المياه التي تجري

فيه قد قلت قبل وصوله بمعنى أنها عدلت عن وجهتها أو أن يكون كذلك من أصله ولكن الذين وصفوه بأنه كبير قد غلطوا في أمره ربما لكونهم كانوا ينقلون عن غيرهم ولكن من بين الذين وصفوه بأنه نهر كبير رجل مغربي فيما يرجح العلماء بل قطع بعضهم على أنه من أهل (سبتة) وهو صاحب كتاب: (الروض المعطار) ويفترض أنه يعرفه معرفة حقيقية عن طريق الرؤية لا السماع، فيكون وصفه بالكبير صحيحاً ولكنه صغر الآن لما ذكرناه.

نهر فاس أو الوادي

كنت استعجل الذهاب إليه ورؤيته ونحن في المدينة القديمة من فاس التي تقع في (عدوة القرويين) فيجيبني الأخ الدليل (زغرب محمد زغرب) إننا في طريقنا إليه و لكنني أحب لك أن ترى ما قبله.

رأينا عليه قنطرة محدبة وهي الجسر يكون على النهر ومجرى الماء ويسمونها (قنطرة الصفارين) لكونها واقعة في (حومة الصفارين) على النهر.

والوادي يفصل بين القسمين الرئيسين من فاس القديمة إحداهما (عدوة القرويين) في الغرب والأخرى: (عدوة الأندلسيين) في الشرق، والعدوة: ما بعد النهر.

كنا نسير على أقدامنا لأنه لا وسيلة أخرى للسير في فاس القديمة إلا الركوب على الدواب وهذه يمنع من ركوبها إلا من أثبت أنه لا يستطيع السير على قدميه ولست منهم، إضافة إلى أن السير على القدمين فيه متعة عظيمة في التسكع والتلفت والوقوف عند المنظر العجيب والإسراع في الزحام.

مجرى نهر فاس

وقفت فوق القنطرة التي تقع فوق النهر أو الوادي وإذا بالنهر أشبه بالقناة الصغيرة أو النهير الصغير فهي من هذه الجهة في نصف نهر (بردى) في دمشق إلا أنه مكتظ بالمياه وسريعة الجريان، وقد بلطوا مجراه بالأسمنت أو بمادة شبيهة به.

ومن الغريب أنني رايت بعض السكان يرمون فيه زبالة يخرجونها من بيوتهم، ذكروا أنه يمضي بها بسرعة جريانه بعيداً عن المدينة.

وتذهب مياه هذا النهر أو الوادي إلى نهر (سبو) الذي يمر بالقنيطرة ويصب في المحيط الأطلسي بالقرب منها.

ونهر (سبو) معروف قديماً بهذا الاسم كما قال صاحب الروض المعطار، وسبق نقل كلامه.

في عدوة الأندلسيين:

تجاوزنا قنطرة الصفارين المقامة على وادي فاس بمعنى نهرها متجهين شرقاً فدخلنا فوراً في (عدوة الأندلسيين) بمعنى القسم الثاني من فاس الذي يسكنه الأندلسيون، فرأيت الأسواق فيه أوسع من الأسواق في عدوة القرويين، وحركة البيع والشراء بل وازدحام الناس فيه أقل منها في (القرويين).

وخُيّل إليَّ أن الناس هنا أصفى ألواناً من أهل عدوة القرويين وإن كان ذلك بمقدار قليل، إن لم يكن ذلك من وحي تسميتهم بالأندلسيين.

ومع ذلك رايت بعض المتقدمين أشار إلى شيء من هذا ولكنه عبر عنه بالجمال وليس باللون، ووازن بين أهل العدوتين، وهو صاحب الروض المعطار، إذْ قال: ويقال: إن رجال عدوة الأندلس أشجع وأنجد من رجال عدوة القرويين، ونساءهم أجمل من نساء القرويين، ورجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين(١١).

المؤلف بالقرب من مجرى نهر فاس

أما أنا فإنني كتبت ما ذكرته قبل أن أطلع على كلامه فليس ذلك من التأثر به.

أما الدليل السياحي المغربي فإنه قال: الأندلسيون أقل حركة من أهل القرويين وهم بسطاء في الغالب، لكونهم جاءوا من الأندلس ليس معهم نقود.

على أن الأمر في عدوة الأندلس هذه وأهلها فيه إشكال فقد ذكر المؤرخون أن عدوة الأندلس اسست بعد عدوة القرويين بزمن بسيط، وفي ذلك الوقت كان الاندلس مزدهراً وكان الحكم الإسلامي قوياً، لذلك لم يأت فيه أهل الاندلس فارين منها إلى هذا المكان من مدينة فاس، ولا مخرج من ذلك إلا بالقول بأن التسمية لم تكن كذلك للعدوة الشرقية من فاس وإنما كان لها اسم غير (عدوة الأندلسيين) وعندما جاء إليها الأندلسيون وسكنوها

١١ () الروض المعطار، ص٤٣٥.

سميت بهذا الاسم، والقول بأن الأندلسيين أهلها جاءوا باختيارهم مثلما تكون الهجرة الطوعية لبلدة من البلدان من أجل تجارة، أو طلباً للأمن من عدو وحاكم غاشم أو نحو ذلك، وأن ذلك كان في القرن الرابع الهجري على سبيل الافتراض.

قال: ويقال: إن رجال عدوة الأندلس أشجع وأنجد من رجال عدوة القرويين، ونساؤهم أجمل من نساء القرويين، ورجال القرويين أجمل من رجال الأندلسيين.

وعدوة الأندلسيين بسيطة بمعنى أنها أقل تعقيداً في البناء وأوسع أزقة، والأبنية الاثرية المتميزة فيها أقل وإن تكن موجودة.

ويسترعي الانتباه فيها أن أسواقها ضيقة وإن لم تكن في الضيق مثل بعض الأسواق في عدوة القرويين ولكنها مثلها مظللة، أو قل كما كنا نقول في لغتنا العامية في مثلها (معششة) أي إن لها سقوفاً كسقوف العشش- جمع عشة- وهي البيت من عسب النخلة أو من القش.

ورأيت فيها باباً ذا اسم لافت للنظر وهو باب العوادين، وهم الذين يعملون في الصناعات الخشبية وهو باب حديث التسمية.

في اسواقها مثلما في أسواق فاس الضيقة توجد دواب الركوب من البغال والحمير معدة لمن يحتاجونها، وأثر الحاجة إليها تكون لحمل الأشياء الثقيلة.

سوق في فاس القديمة

ورأيت البلدية تستخدم الدواب أيضاً في حمل القمامة من الشوارع وإبعادها عن المدينة، وهي طريقة قديمة كانت تستعمل في أكثر البلدان المتمدينة قبل اختراع السيارات.

الذي لم ير فاس لم ير المغرب:

كنت وأنا صغير قد سمعت من والدي رحمه الله قولاً لم أكن أفقه معناه آنذاك حق الفهم وهو قول العامة: (اللي ما شاف فاس ومكناس ما شاف ناس) أي من لم ير فاساً ولا مكناساً كأنما لم ير الناس.

وذلك لعظم أمر هاتين المدينتين وشيوع ذكرهما الذي وصل إلى العامة في نجد.

ذكرت ذلك عندما طرأت على ذهني مقولة وهي أن من لم ير (كذا) في البلد الفلاني فإنه لم ير ذلك البلد، مثل: ومن لم ير الأهرام لم ير القاهرة، وهنا يمكن أن نقول: من لم ير فاساً القديمة لم ير المغرب، لأن فيها الآثار القديمة، والأزقة التي لم تتغير عن حالتها القديمة، وحتى السكان هم- في الغالب- من المحافظين على ما كان عليه السكان القدماء من عادات وتقاليد، ومن أهم ذلك اللباس المغربي الأصيل، وبخاصة لباس النساء الذي لا يزال البرقع يتوجه ويطبعه بميزة فريدة.

سوق النخالين:

عجيب أمر هذه المدينة العربية العريقة التي حافظت على التسميات، الستوحاة من الصناعة وتسميتها باسم على صيغة المذكر السالم مثل العشابين والصباغين الخ، إلا أنني رأيتهم هنا سموا سوقاً باسمه على هذا الوزن ولكنه لغير مهنة من المهن وهو (سوق النخالين) بتشديد الخاء، وقال الأخ (زغرب): إن السبب في تسميته أنه كانت فيه نخلات في القديم فكأنما معنى التسمية سوق أهل النخل.

حومة بالمدن:

قدمنا القول بأن المراد بـ(حومة) هنا هي الحارة أو الحي ولكنها غالباً ما تكون ضيقة أي غير واسعة أصغر من الحي، ومن ذلك حارة اسمها (حومة بالمدن) هذا اسم مختصر من (حومة بين المدن) سميت بذلك لكونها واقعة بين (عدوة القرويين) التي اعتبروها مدينة وعدوة الأندلسيين التي اعتبروها مدينة أيضاً، وجمعوا المدينتين على (مدن) جرياً على عادة العامة بالتعبير عن المثنى بالجمع في أكثر المواضع.

أرحاء النهر:

رأينا على الضفة الغربية من (نهر فاس) مكان أرحاء- جمع رحا- عديدة كانت تدار بوساطة انحدار مياه النهر، وتطحن بها الحبوب التي اشهرها القمح، وقد بطل استعمالها الآن إذ أصبح الطحن عندهم على آلات تدار بالكهرباء.

حارة الدباغين:

عدنا إلى (عدوة القرويين) ولكننا لم نعد إلى وسطها وإنما صرنا نسير بجانب النهر الذي كان له جانب مرفوع من جهة الشارع، وذلك في أحياء قديمة وأزقة تاريخية ضيقة، وإن لم تكن بالغة الضيق، وكان السير فيها على الأقدام مثل بقية الجولة التي مضت عليها الآن قرابة أربع ساعات دون استراحة وذلك أنني لم أشعر بالتعب، حتى لو كنت تعبت لكان لارتياحي لرؤية هذه الأماكن التاريخية ما انساني التعب، بل أنساني حتى الشعور به.

المؤلف في زقاق ضيق في فاس

ومررنا بزقاق ضيق اسمه (زنقة شوّاره) كان يسكنه اليهود من الذين جاءوا في القرن الرابع عشر مع الأندلسيين، وذلك بعد أن بنى أبويعقوب المريني فاساً الجديدة حيث أنشأ فيها حي الملاح الذي عرف بأنه حي اليهود، ولا زال معروفاً بهذا الاسم، وإن كان أهله الآن من المسلمين كما سبق.

و(شَوَّاره): نوع من الجلد الجيد الدباغة كان يباع فيه.

وفي حومة الدباغين رأينا ضريحاً معظماً عند الناس مكتوباً عليه بالعربية: مولاي أحمد الصقلي ولد سنة ١١١٢ هجرية وتوفي ١١٧٧ هجرية، وليست عليه كتابة بغير العربية.

وهذا على باب المبنى المقام على هذا القبر، ولما رأى الأخ زغرب امتعاضي من البناء على القبر تعظيماً له قال: هذا لا يجوز، ولا يجوز أن يتعلق قلب المسلم بغير الله تعالى.

ولا أدري أمرد ذلك إلى مارآه منطبعاً على وجهي من استنكار لهذا العمل أو لكونه يستنكره هو، وظني أن الثاني هو الصحيح، لأنه أيضاً ينكر التوسل بالأولياء!

ومن الطريف أنني لاحظت أن أبواب كثير من البيوت في هذه الأزقة الضيقة مفتوحة فسألت الأخ الدليل عن ذلك، فقال: هذا صحيح درج الناس على فتح أبواب البيوت في النهار من أجل أن يلجأ المارة إليها إذا زاحمتهم الدواب على الزقاق!

وهذا أمر لطيف عجيب، ولابد أن يصحب ذلك شعور الناس بالأمن فلو كان الخوف من السرقة أو الانتهاب هو السائد لما فتح الناس أبواب بيتهم على هذه الصفة، وقد سألت الدليل عما إذا كان أهل البيوت ذات الأبواب المفتوحة لا يخشون السرقة، أجاب بالحرف الواحد: (عمره ما حدث سرقة)، أي أنه لم تحدث سرقات بسبب ذلك.

عندما توغلنا ونحن نسير في حومة الدباغين كانت تحوم في جوها رائحة الجلود المدبوغة حتى إنني احتجت إلى أن أسد أنفي في بعض الأماكن، ثم وصلنا إلى مبنى من أربع طبقات صعدنا إلى أعلاه مع درج ضيق أملس حتى وصلنا إلى الطبقة الأخيرة، وإذا بها العجب العجاب من أحواض فيها الجلود المدبوغة، ومن أوانٍ وأوعية فيها الأنواع المنوعة من الألوان الملونة، بحيث يمكن أن يصل عددها إلى العشرات، فهم يدبغون الجلود، ويلونونها من هذه الألوان.

وبعض الجلود منشورة في الشمس لتجف، والعجيب أن الشمس لا تذهب صباغها وعهدنا بالشمس في بلادنا تذهب الأشياء المصبوغة إذا بقيت فيها فترة طويلة، وربما كان ذلك في بلادنا لغلبة الجفاف فيها بخلاف هذه المدينة.

وقد صعدت إلى سطح الطابق الأعلى من المبنى ويشرف على عدوة الأندلسيين لأنه واقع على الضفة الغربية لوادي فاس فالتقطت لها صورة عامة.

ثم انحدرنا بعد أن رأينا ما عجبنا له من طريقة الدباغة القديمة، والألوان الزاهية المتعددة التي تصبغ بها الجلود، إلى قاعة عرض واسعة فيها نماذج من المصنوعات الجلدية المدبوغة في (حومة الدباغين) هذه، وفيها ما يعجب النظر إليه ويطرب من الحقائب والأحذية والفرش والملابس الثقيلة للبلدان الباردة، وبعضها منقوش بنقوش جميلة مزوقة.

وقد طلب مني القائمون عليه أن أشتري ما أريد، وذلك أنهم اعتادوا على أن يستقبلوا مجموعات سياحية من الأوربيين وغيرهم، وعادة المجموعات السياحية أن يكون فيها من يريدون شراء تذكارت أو حتى حاجات من هذه المصنوعات الدقيقة.

كما أنهم يستقبلون في بعض الأحيان رجالاً من رجال المال والأعمال التجارية الذين

يسعون إلى إبرام صفقات شراء واستيراد من المغرب لمثل هذه المصنوعات.

والحقيقة أنني شعرت هنا وفي أماكن عدة بالفخر لوجود هذه الصناعة الدقيقة العريقة المتميزة على الصناعات الغربية بكونها قامت على أساس مغربي خالص، وبأيد عربية مسلمة، وأبدعت في فن صناعتها ونقشها وتحليتها بما لا يستطيع غيرهم من غير المسلمين أن يفعله إلا بعد تمرين وممارسة طويلين.

مجمع السجاد:

خرجت من هذا المبنى الذي يعطي فكرة عن دبغ الجلود دباغة تقليدية وأنواع المصنوعات منها، وقد ألهاني المنظر الجميل عن رائحة الدباغ التي كان يعبق بها المكان.

وسرنا في زقاق ضيق من هذه الأزقة التي تحفل بها المدينة القديمة فمررنا برجل يصنع الأباريق التي يغلى فيها الحليب وقد وضعها على الكير، وهي شبيهة (بالدلة) التي هي ابريق صنع القهوة عندنا، وقد سماها الأخ الدليل هنا (أباريق) وهذا هو الاسم الذي ينبغي أن تسمى به، لأنها أباريق حقيقية وليس اسم الإبريق مثلما أصبح عند العامة في بلادنا مختصاً بإبريق الشاي دون إبريق القهوة، بل إن الأباريق كان منها أباريق الشراب وهو بارد كما هو معروف.

ووصلنا في أحد هذه الأزقة إلى مبنى فخم نظيف واسع من الداخل مثل كثير من الأبنية هنا التي تظن وأنت تسير في الزقاق الضيق أنها صغيرة قياساً على ضيق الزقاق ولكن الأمر ليس كذلك.

دخلنا إلى هذا المحل الكبير فإذا به محل حكومي وهو معرض بيع للسجاد المنوع الذي هو كله من صنع المغرب، وبيعه كله بالمتر المربع وهذا جيد ومريح للمشتري وفيه من السجاد المصنوع في المغرب أنواع منها الجيد، لكونه أثرياً وهو من الصناعات اليدوية.

وقد أعجبتني بعض النقوش على السجاد لأنها مغربية خالصة أما أكثرها فإنها تشبه نقوش السجاد الموجود عندنا الذي نستورده من العراق أو إيران.

ورأيت فيه نوعاً من المفروشات ناعم الملمس، جميل المنظر ذكر المشرف على المعرض الذي كان يشرح لنا ما يحتاج منه إلى شرح بأنه (الديباج) وأنهم يصنعون منه أحجاماً متعددة وإن الغربيين يحبون شراءه واقتناءه لاسيما للتعليق على الحيطان.

الزاوية التيجانية:

هكذا أسماها الدليل، وهذا كان اسمها القديم وبقيت عليه وإلا فإنها هي ضريح الشيخ أحمد التيجاني شيخ الطريقة التيجانية الأول الذي ينتسب إليه التيجانيون كلهم ويترضون عنه، ويترحمون عليه، والرجل مغربي في عرف التاريخ القديم فقد ولد في بلدة واقعة الآن في غرب الجزائر فاعتبره الجزائرون جزائرياً، ولكنه عاش في المغرب فاعتبره المغاربة مغربياً، ودفن في المغرب في هذا القبر الذي نتجه إليه.

وقد انتشرت الطريقة التيجانية في المغرب وفي أقطار إفريقية الغربية العريقة في الإسلام كمالي والسنغال وكثر أتباعها، وعظم تأثيرها في الأمور الدينية.

وليس هذا الكتاب مكان بيان حالها وما يؤخذ عليه من أمور بدعية،وما لها من جهود في نشر الإسلام بين الوثنيين، وبين الحائرين من المسلمين، فذلك له أماكن غيره، وقد ألفت فيه الكتب ونشرت فيه البحوث وفي مكتبتي الخاصة قدر من ذلك، وإنما نذكرهنا ما شاهدناه أو ما يوضح ما شاهدناه.

وصلنا إلى باب ضخم من الخشب القوي المنقوش المعتنى به ذي مصراعين فوجدنا عنده رجلاً يهم بإغلاقه، فأخبره الأخ الدليل بأنني سائح سعودي أجول في مدينة (فاس) القديمة وأنه أي الدليل أراد أن يريني الزاوية التيجانية.

سمح الرجل وهو مغربي أسمر، ولما دخلنا أسرع يغلق الباب، ووجدنا المكان ليس زاوية كما يوحي به هذا اللفظ وإنما هو مكان متسع مبني بطريقة معتنى بها، وقد انفق عليه بسخاء، وهو على هيئة مسجد كبير فاخر البناء في جانبه الغربي قبر الشيخ أحمد التيجاني، قد جللوه بحواجز من شباك الحديد شبيه بالشباك الموجود على قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما، أو هو قبر رأس الحسين في القاهرة، إلا أن هذا أوسع وأفخم.

وهذا الشباك المطلي بالأخضر يحيط بالقبر وهو مشغول بهيئة فنية مميزة ذكر القائم على المكان وهو الذي فتح لنا وأبان لنا أنه على عجلة من أمره لأنني كنت أظن أنه يريد الانصراف للغداء، ذكر أن هذا الشباك جاء إليهم من تونس حيث صنع هناك.

والقبر داخل حوائط الشباك هذه وقد بنوا فوقه قبة عالية وأحاطوه بمظاهر التعظيم والتفخيم في البناء وفيما يتعلق به.

والمسجد واقع أمام القبر ويراد بذلك المحراب والصفوف الأولى، وإلا فإن المبنى يظهر القبر في وسط المسجد.

ولا أدري ايستجيز بانوه أن يصلي الناس وهم يستقبلون القبر إذا امتلأت الصفوف

التي أمامه، فلم أسأل الرجل لأنني شعرت أنه لا يحب الحديث في مثل هذه الأمور، وربما كان قد علم أننا ننكر البناء على القبور، وسؤال المقبورين والصلاة والدعاة عند قبورهم بنية أن يكون ذلك أفضل أو أدعى لاستجابة الدعاء، والمسجد مفروش برخام صغير ملون غالٍ، وكذلك المسجد كل ما فيه ينطق بالسخاء على المبنى، وعدم الحاجة إلى النفقة.

وسألت الرجل من أين حصلوا على النفقة لهذا المبنى الغالي؟ فأجاب: كله من المحسنين.

وقد سألته عن ذلك لأنني رايت أنه باستثناء المساجد التاريخية العريقة فإن مثل هذه العناية لا تكون في المساجد النظيفة الخالية من القبور إلا ما ندر.

وللمسجد ملحقات لم ندخلها لضيق الوقت وعدم اتساع صدر المسئول لذلك، فخرجنا من (الزاوية) وتأملت أعالي بابها الضخم فإذا فوقه كالكتف من الآجر ولكنه نبت فوقه العشب مثل كثير غيره من السقوف والاماكن المرتفعة في فاس بسبب كثرة الأمطار عليها هذا العام.

ورأيت لافتة صغيرة مكتوبة على هذا الباب الكبير هذا نصها:

«سيدي أحمد التجاني، ولد سنة ١١٥٠ وتوفي سنة ١٢٣٠هجرية».

بَبُّوش أو الحلزونات البرية:

خرجنا من الزاوية التجانية وفي نفوسنا مرارة ما شاهدناه من البناء على القبور، وبناء المسجد حوله، فوصلنا إلى معرض حرص الأخ الدليل على أن نراه وإن لم أكن كذلك وهو معرض للباس النساء الفاخر، وهو جميل وغريب وبعضه ذو ألوان صارخة ونقوش وتزيينات مناسبة له، وبعضهم ذو ألوان هادئة وكله جميل ينطق بالذوق والمهارة.

والأجمل من ذلك ما أخبرني به الأخ الدليل السياحي (زغرب محمد زغرب) من أنه كله من صناعة فاس مثل أكثر المعروضات في الأسواق من الملابس والأحذية والمصنوعات الجلدية.

لم أقف طويلاً عند لباس النساء الفاخر لعدم اهتمامي به، وإنما واصلنا السير في أسواق تجارية ضيقة مزدحمة حتى رأينا في ميدان صغير هو في الحقيقة ملتقى لعدة اسواق وفيه رجال معهم شيء في وعاءٍ كبير فوقه غطاء من القماش يدنونه عليه مرة ويرخونه فوقه عندما يحتاج أحد أن ينظر إليه.

وقف بي الدليل وقال: هل تعرف هذا؟

ونظرت وكدت أصد بوجهي عنه من التقزز لولا أن الفضول وحب الاستطلاع صدني عن الصدود فتأملته وإذا به يشبه الحلزون أو القواقع التي تكون في المياه، ورأيتها عدة مرات حية تتمشى على شاطئ البحر وهي حيوانات مائية فوق ظهورها ما يشبه الغطاء من الجير، وقد خلقه الله لها بمثابة الدرع أو الترس لوقايتها من أن تتخطفها الطيور ونحوها.

وهي المعروفة باسم (القواقع) في المطاعم ويأكلها الناس على امتداد الأرض، وحساؤها من ألذ أنواع الحساء لاسيما إذا صنعه أناس ذوو خبرة بطهي طعام البحر أو (ثمار البحر) كما يسميها بعض الناس.

أما هذه التي أراها الآن معروضة للبيع فهي على هيئة دود كبير عليها كالغطاء من الجير شبيه بما يكون على القواقع المعتادة إلا أنه أصغر منه.

وقال الأخ الدليل: إننا نسمي هذا (البُبُوش) ولا نعرف أحداً يأكله من الناس إلا المغاربة والفرنسيين وذكر أن أحد الفريقين تعلم أكله من الآخر أي إن الفرنسيين أكلوه تقليداً للمغاربة أو العكس، وذكر أنه لا علاقة له بالبحر وإنما يوجد في البر في الربيع وفي آخر الشتاء وذكر أنه جيد للحساء!

وقد أصابني التقزز وأنا أراه في الوعاء يتمدد ثم يدخل بعضه في بعض مثلما تصنع الدودة إذا سارت وإذا وقفت، ولم تطب نفسي بلمسه لأرى ما إذا كان أملس أو خشن الملمس.

ولما أبديت تقززي منه قال: هو كالضفادع المائية التي يأكلها الأوروبيون فقلت له: إننا لا نأكل الضفادع، وإن كنا لا نحرم أكلها، لأنها مما يعيش بين الماء واليابسة.

أما اسمه (بَبُوش) فإنه عليه سمة مغربية بربرية ولا أدري إلى أية لغة ينتمي، ومررنا بسوق ضيق فيه محلات للشواء يعبق السوق الضيق برائحتها ويحوم فيه دخانها، ومع ذلك يرى المرء من هذا الزقاق صومعة أي منارة أندلسية مربعة في غاية الجمال، وكأنها لا تنتمي إلى هذه الأسواق الضيقة، وقد التقطت لها هذه الصورة.

مسجد سيدي إدريس:

وينطق المغاربة بكلمة سيدي- بكسر السين والدال مع تخفيف الياء الساكنة.

وصلنا إليه مع أزقة معتادة فيها ساباط مسقفة بالخشب والساباط هو الذي تسميه العامة عندنا (المَجَّب) وهو غرفة تكون فوق الشارع الضيق أو الزقاق تغلق ما بين الدارين المتقابلتين من جهة العلو، ويسير المارة أسفل منها كما يسيرون في الشارع المسقوف.

ثم وصلنا إلى (مسجد سيدي إدريس) وأول ما رأيناه منه صومعته الفاخرة البناء وهي المنارة الأندلسية المربعة.

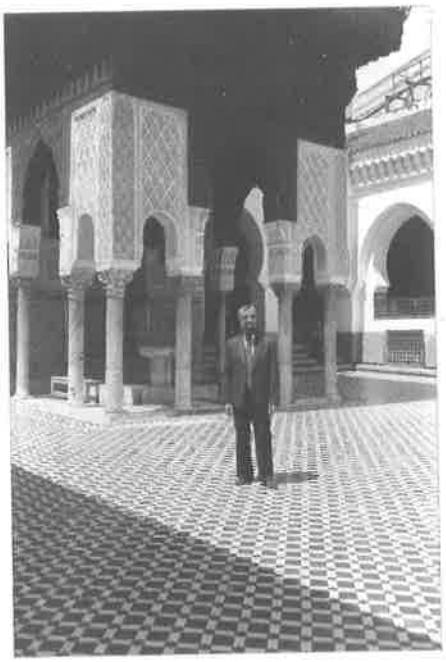

المؤلف في صحن مسجد مولاي إدريس في فاس

ويدخل إلى صحن المسجد وهو غير المسقوف منه، ولكنه معتنى به بحيث أن أرضه مفروشة بالفسيفساء، بمعنى الرخام الدقيق الملون الذي يسميه بعض الناس (سيراميك) وهو موجود في هذه البلاد المغربية يصنع فيها وتبلط به الاماكن المحترمة منها قبل أن يسمع العرب بلفظة (سيراميك) بقرون.

وتحيط بالصحن أروقة تركبها مثل أعمدة المسجد عقود متقنة وهي واسعة في المدخل ضيقة في البقية.

وفي وسط الصحن نافورة ينبعث منها الماء رايت الناس يحرصون على شرب الماء منها وعندها نساء وبنيات يشربن الماء منها تبركاً لكونه من هذا المسجد الذي يقع ضريح (إدريس) في مقدمته، وقد كتب عليه:

«المولى إدريس الأزهر ولد سنة ١٧٧ وتوفي سنة ٢١٥ هجرية».

وإدريس هذا هو أول من أنشأ مدينة فاس كما تقدم.

وقد رأيت في المسجد جمعاً قليلاً من الرجال والنساء ما بين جالس ومتكي أو مستند على الأعمدة بعضهم جاء بقصد التبرك وطلب الأجر من زيارة هذا المكان والصلاة في المسجد وبعضهم جاء للراحة بعد الجولة في أسواق فاس القديمة وأزقتها الضيقة، ولكن

الذي ضايقني هو مبادرتهم لمن يأتي بتقديم الماء بقصد التبرك به والنفع منه.

وقد فعل معنا المسئول عن المسجد والقبر ذلك، واستغرب عندما رفضت شرب الماء، والواقع أنني تركت شرب الماس لسببين، أولهما أنني لم أثق بنظافته الحسية فهو ماء لا أعرف مصدره وثانيهما: لئلا يظن ظان أنني شربته لمثل ما يشربونه له وهو التبرك وطلب النفع في الدين من شربه.

وتأملت الذين في المسجد فإذا بملابسهم نظيفة وأكثر النساء عليهن ملابس مغربية وطنية ضافية، وبعضهن قد ارتدين ملابس عصرية، والظاهر أنهن من الأجنبيات عن (فاس).

وخرجنا من المسجد فرايت على حائطه مما يلي الشارع أيضاً ماء (سبيلاً) وهو الذي يشربه من يريد بالمجان، ويظهر أنه طبيعي من غير تبريد.

و(مسجد إدريس) هذا مثل (مسجد القرويين) لا يدخله غير المسلمين، ولو دفعوا مادفعوامن مال، وإنما يستطيع من يريد منهم أن يتطلع إلى داخله من بابه إذا كان مفتوحاً وهو يكون مفتوحاً في أغلب الوقت، وفيه رجل يعتني به يكون موجوداً، وإذا ذهب قام غيره مقامه.

أحد المباني الأثرية في فاس

عندما خرجنا من هذا المسجد الذي لا تجوز الصلاة فيه إذا كان مبنياً على القبر، لأن في ذلك مخالفة لقول الرسول صلى الله عليه سول: «لا تتخذوا القبور مساجد) وفي رواية فإني أنهاكم عن ذلك.

وكانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف ومضت علينا خمس ساعات من السير المتواصل وقد تحمل وزر ذلك الأخ الدليل السياحي (زغرب محمد زغرب) رغم عرج في رجله خفيف، وانحراف في صحته، ولكن ذلك لم يحمله على أن يختصر البرنامج، أو يخفي عني بعض الأماكن التي تتطلب منه جهداً إضافياً.

فقلت له: إن وقت الغداء قد أزف فإن أردت أن نتغدى في مطعم جيد هنا فعلت فاعتذر عن ذلك بأنه يتناول طعاماً خاصاً وصفه له الطبيب، وكان لم يقبل أي شراب يشترى، وإنما قال لي بلطف: كل ما أرجوه إذا كنت راجعاً إلى فندقك، (فندق منيا) أن تأخذني معك إلى مكتب السياحة الذي يقع بجانبه فركبت معه سيارة أجرة، وأعطيته الأجرة التي اتفقت عليها مع المكتب وهي مائة درهم مغربي ويساوي ذلك ٤٢ ريالاً على وجه التقريب، فشكر وودع بحفاوة.

وهكذا عدت إلى فندقي في (فاس الجديدة) وكنت تجولت فيها أمس فدخلت أحد مطاعمها وطلبت (طاجناً) وهو اللحم مع الخضرات الذي وصفته و بعض الحساء مع اللحم هذا اليوم اللوبيا والزيتون هكذا يطبخونه وهو الأخضر مع المرق، وهو ما لا نعرفه في بلادنا.

سكان فاس:

في الساعة الرابعة تجولت بسيارة أجرة مع سائق مغربي حصيف شرح لي ما مررت به من هذه الأحياء الجديدة التي هي في الحقيقة لا جديد فيها بالنسبة إلي أنا الذي زرت أنحاء العالم وعرفت الأحياء الجديدة الحديثة في مدن المملكة وهي عندنا الآن فاخرة إلا أنها ليست بذات الطابع العربي الإسلامي القديم مثل المباني الموجودة في فاس القديمة.

واتضح لي من الجولة بالسيارة على أحياء فاس الجديدة بعد الجولة الموسعة على الاقدام في المدينة القديمة أنها كبيرة كثيرة السكان ولذلك لم أعجب حينما علمت أن عدد سكانها يبلغ مليوناً ومائتي ألف نسمة، وربما كان ذلك مع المحلات والقرى القريبة منها التي كانت منفصلة عنها ثم لحقت بها عمارتها.

وعدت بعد الجولة إلى راحة قصيرة في الفندق صليت أثناءها الظهر والعصر جمعاً.

ثم خرجت قبل المغرب في جولة على قدمي فيما حول (فندق منيا) أو (مُنْيَة) الذي أسكن فيه، ورأيت عدداً من المقاهي مزدحمة بالناس.

ومعظم المقاهي يجلس فيها الرجال في العادة ولا تجلس فيها النساء مع الرجال، إلا أن هناك مقاهي ومقاصف خاصة قليلة العدد، ولكنها نظيفة راقية فخمة تدخل إليها النساء مع الرجال ويجلسن فيها وحدهن، أو على مائدة فيها الرجال من أقاربهن فيما يظهر.

الطبيعة المميزة:

من عادة إخواننا المغاربة التي يلمسها العربي الغريب عن بلادهم اللطف والرقي في المعاملة مثل عدم الاستغلال في البيع، وقلة الكذب والتسامح مع الغريب، بل مساعدته فيما يحتاج إليه ومثل الكرم في الضيافة وحتى الإخلاص في العمل.

وهذه أشياء يحتاج إليها العالم العربي، لأنها ليست موجودة في كل أنحائه على الوجه المطلوب، وإن كانت موجودة في بعضه أو بعضها موجود في بعضه.

وهناك عادات أخرى يتميز بها المغاربة عن بقية العالم العربي مثل إسراع النساء إلى التحدث مع الرجال، أو قل عدم تحرجهن من ذلك، وما قيل من أنهن أيضاً يسرعن إلى التعرف عليهم وما يظهر أنه تقليد للفرنسيين الذين سيطروا على المغرب في عهد الحماية كما يتبادر إلى الذهن وإن كنت اعتقد أن ذلك ليس صحيحاً، لأن الفرنسيين سيطروا على الجزائر سيطرة تامة ولعهود طويلة بالنسبة إلى حكمهم في المغرب، ولم يؤثروا فيها مثل ذلك.

ومن المظاهر التي يراها المرء أو يحس بها في المغرب عدم استنكار تعاطي المشروبات، وكذلك قلة عدد الذين يؤدون الصلاة في المساجد جماعة بالنسبة إلى أكثر البلدان العربية.

يوم الأربعاء: ١٤١٦/١١/٢٩هـ:

مغادرة فاس:

في الثامنة والنصف صباحاً كنت أدفع إلى فندق (منية) التي معناها فيما أحسب واحدة الأماني أجرته وهي ١٩٢ درهماً في الليلة وهذه تعادل ٨٩ ريالاً سعودية فقط، وهي أجرة رخيصة لأن الفندق نظيف ومرتب ومعاملة أهله ممتازة.

وغادرته إلى محطة القطار مع سيارة أجرة في التاسعة إلا ربعاً دفعت أجرتها خمسة دراهم فقط وهذه تساوي ريالين سعوديين أو ما يزيد قليلاً على نصف دولار أمريكي، وهذا رخص متناه.

واشتريت تذكرة بالدرجة الأولى من فاس إلى الرباط بـ٧٩ درهماً وكنت دفعت في القدوم ٩٢ درهماً، ربما كان ذلك بسبب نوع القطار.

ركبت بسرعة في عربة وحدي وكأنما استأجرتها كلها بمفردي، لأن الركاب في الأولى قليل في هذه الساعة من الصباح.

وفي التاسعة إلا ربعاً تحرك القطار قاصداً الرباط، وقبيل تحركه مر رجل يدفع أمامه عربة فيها طعام نظيف منوع ولم أكن أفطرت قبل الخروج من الفندق فأخذت منه طعاماً جيداً مع القهوة بـ١٩ درهماً أي نحو ٧ ريالات ونصف.

عين تاوجدات:

نلاحظ الصيغة البربرية لهذه التسمية (تاوجدات) أما عين فهي العربية والمراد بها العين التي تجري بالماء.

وهذه محطة للقطار وقف فيها بعد أن غادر محطة فاس بعشر دقائق فقط.

وهذه المنطقة خصبة جداً فالأرض وحتى الربى كلها خضرة، وهناك أشجار من الزيتون واسعة، ورأيت أغناماً فيها ترعى حمر الألوان، وإن لم تكن حمرتها صافية، مثلها في اللون مثل الغنم في شمال أوروبا من حيث عدم صفاء اللون.

وجاء الخيال ليقول: إن ألوانها متأثرة بألوان تربة هذه الأرض التي هي حمراء حمرة غير صافية.

وقد جللت أزهار الربيع حتى الربى فيها وهي مختلفة الألوان ولاشك أن عمر الربيع قصير ولكن الأشجار والحقول المزروعة مستمرة الخضرة.

ورأيت حقولاً في الربى مما زرعوه على المطر وأكثرها حقول قمح.

وفي هذه القرية أو المحطة محطة (عين تاوجدات) رايت صومعة مسجد زرقاء جميلة المنظر ذات شكل مربع وهي المئذنة وهي بجانب مسجد واسع هو مسجد القرية أو المحطة.

ولم ينفق القطار كثير وقت في هذه المحطة، وإنما غادرها وسط جو أخضر جميل وكأنما ازهار الربيع فيه تبتسم غير مبالية بعمرها القصير.

وتعددت حقول القمح الذي أوشك على الحصاد، بل امتدت حتى صارت لا يدرك البصر لها مدى.

ومعلوم أن إخواننا المغاربة يعتمدون في غذائهم على القمح ويقول بعض الناس: إن الإخوة المغاربة من الشعوب الأكولة أي التي تعتني بالطعام كثيراً وتأكل الكثير.

وقد تكررت رؤية صوامع المساجد التي هي مآذنها.

وفكرت في أعشاب الربيع الكثيرة هذه وقلت: لو أنهم فعلوا كما فعل الأوربيون الشماليون الذين لا ينتفعون من أرضهم في فصل الشتاء بأي شيء بسب سقوط الثلوج وشدة البرد، ولذلك يجمعون الأعشاب التي تنمو في فصل الصيف عندهم ثم يخزنونها علفاً لمواشيهم في الشتاء ولديهم ثروة بل ثروات ضخمة من الماشية.

أما نحن فإن الربيع عندنا ليس على وتيرة واحدة، فقد يكثر ويزدهر في بعض السنوات، وقد يتلاشى أو حتى لا يوجد في سنوات أخرى، ومع ذلك يمكننا أن نحصد ما يتوفر فيه وندخره علفاً للماشية التي صرنا نلح عليها بالذبح من أجل الحاجة إلى اللحم.

وفي الساعة التاسعة كان القطار يقف في قرية لم أعرف اسمها لأنني لم أره مكتوباً، كان من الأشياء اللافتة للنظر فيها امرأة بيضاء تحمل طفلها الأبيض على ظهرها كما تفعل الإفريقيات السود.

وبعض الأبنية في أطراف هذه القرية غير جيدة المظهر، وهي مبنية مبالحجارة والطين وسقوفها من الصفيح.

ومن العادة الحميدة هنا أن اللافتات المكتوبة على الطريق توضح اسماء القرى والمحطات مكتوبة بالعربية وحدها، وليسوا مثلنا قد اعتاد الموظفون عندنا على أن يكتبوا حتى قرى البدو بالعربية تحتها الإنكليزية، وهي عادة قلت الآن إذْ صارت معظم اللافتات الجديدة الآن عندنا بالعربية وحدها.

مكناس:

هذه المدينة الرئيسية من مدن المغرب كتبوا اسمها على محطة القطار بالعربية والفرنسية، وقف القطار في محطة (مكناس) الكبيرة الرئيسية ورايت فيها عدداً من القطارات الواقفة مما يدل على أهميتها.

مكناس السيد عبدالقادر في المغرب

وفيها نخيل من نخيل الزينة يشبه نخيل الزيت الضخم الجذوع وهو في الرشاقة دون نخيل التمر، وأبعد عن ذلك منه في الشكل نخلة النارجيل النحيلة الساق الضخمة الفرع ولكنها لا تنمو إلاّ في البلدان الحارة الرطبة، فلا تنمو في مثل هذه البلاد المغربية المعتدلة.

ورأيت نخلة عربية واحدة من التي تتمر- بتائين- في العادة إلا أنها هنا عقمت عن الإثمار لأن المنطقة لا تشهد صيفاً حاراً جداً وجافاً.

ولاحظت في أيمن المحطة منظراً غير مناسب يتمثل في أكواخ من الخشب زرية المنظر وهي بجانب مبنى المحطة الجيد، وربما كانت لبعض البدو أو الأجانب ولكن ينبغي إصلاحها أو إبعادها.

مكناس- الأمير عبدالقادر:

غادر القطار محطة (مكناس) التي لم توصف بوصف يميزها لأنها محطة المدينة إلى

مكناس أخرى اسمها (مكناس الأمير عبدالقادر) كما كتبوا ذلك على محطتها وتزين هذه المحطة نخيل الزينة الغليظة التي هي أشبه بنخيل الزيت- كما ذكرت- إلا أنهم اعتنوا بها فطلوا أسافلها بطلاء أبيض.

ومعها نخيل من التي تسمى بالنخيل الهندية ذات الفروع الصغيرة، وقد تكررت رؤية بيوت الصفيح في أطراف البلدة، ولاشك أن الأمر يحتاج إلى عناية مثل منح المحتاجين من ذوي البيوت أراضي حكومية أو بيعها عليهم بثمن منجم ميسر، أو بغير هذه الطريقة.

ومما يجدر ذكره أن سكان المغرب يبلغ عددهم الآن ٢٢ مليون نسمة، وكثير من شبانهم وعمالهم يشكون من البطالة، وقلة الأعمال مع أن فيها فرصاً زراعية وأنها يمكن إذا تيسرت الأسباب وحصلت على مساعدات أن تكون فيها صناعة جيدة.

أشجار الزيتون:

يشتهر المغرب بإنتاج الزيتون، وقد عجبت عندما رأيت حوانيت ضخمة لبيع الزيتون من كثرة أنواعه وألوانه.

ومن أجمل المناظر التي رأيتها في الطريق بعد أن غادر القطار (مكناس الأمير عبدالقادر) داخلاً في نفق خرج منه إلى منطقة غاصة بأشجار الزيتون النضرة بينها أزهار الربيع المختلفة الألوان.

ثم ا ستمر القطار في سيره ولم أر أحداً صعد إلى القطار في الدرجة الأولى التي أنا فيها ولا نزل منها أحد، وأما الدرجة الثانية والثالثة- ان وجدت- فإنني رأيت أناساً كثراً ينزلون وآخرين يصعدون ولكن دون كثافة.

وقفة في درزيعة:

بعد أن أمضى القطار ساعة كاملة من السير وقف في بلدة اسمها (درزيعة)، أو هذا هو اسم محطة القطار فيها، وهي بلدة زراعية، رايت فيها بقراً قليلاً يرعى، وفلاحين في الحقول وحقولاً من القمح تجلل حتى الأماكن المرتفعة، مما يدل على أنهم زرعوه على المطر، لأنه لا يمكن إيصال مياه الري إليه.

إستأنف القطار سيره فمررنا ببلدة اسمها (عين الكرمك) ولم نقف فيها وقد رأينا قبل الوصول إليها بيوتاً ريفية من الطين مثلما كنا نفعل في بلادنا عندما كنا نبني البيوت بالطين إلا أن بعض هذه البيوت الريفية المغربية مسقف بالقش وهذا أمر لم نعرفه لأننا كنا نسقف

بيوتنا الطينية بخشب الأثل فوقه جريد النخل.

وبعيد (عين الكرمك) اتسعت الحقول وفيها زهور زرق جميلة من زهور الربيع واسعة.

ثم مررنا بنهر كدر المياه عنده أبقار صفر تسر الناظرين.

وكنت بحثت عن شاي من شايهم الأخضر فلم أجد عند بائع المقصف في القطار منه شيئاً.

سيدي مبارك اردم:

وقف القطار في محطة كتبوا عليها اسمها: (سيدي مبارك اردم) وهي محطة لم أجد حولها قرية، ولكنها زراعية ذات أرض طينية خصبة.

ورأيت فيها مقبرة، مما يدل على أنها واقعة قرب قرية أو بلدة وقبورهم غير مرتفعة عن الأرض بل هي مثل القبور عندنا إلاّ من ناحية العناية بشواهد القبور فإنهم يعتنون بها وتكون من الحجارة.

ومر القطار فوق مجرى مائي كأنه القناة الزاخرة بالمياه، ثم أخذ يباريها وهي يمينه حتى صارت كالنهر الصغير مما يدل على أنها تتلقى مياهاً ترفدها ولذلك رأيت مياهها كدرة، ومن اللطيف أن النساء اللاتي نراهن من القطار عليهن الملابس المغربية الوطنية الجميلة.

وقد وصلنا منطقة جبلية غير عالية ما لبث القطار أن خرج منها.

بلدة سيدي قاسم:

في العاشرة والنصف وقف القطار وقوفاً طويلاً في بلدة (سيدي قاسم) وهي بلدة جميلة الموقع لأننا أول ما وصلنا منها قبل محطة القطارات رايت ميداناً فيها تطل عليه صومعة وهي المآذنة المربعة التي سبق ذكرها.

ثم مررنا بميدان كل الذي فيه عربات تجرها الدواب، وربما كان مخصصاً لها، وعلى أيمن الطريق منطقة تحتاج إلى تنظيف من الورق والمخلفات التي تشوه منظرها، ثم وصل القطار إلى أرض ريفية معمورة بالزراعة فيها قنوات الماء مرفوعة عن الأرض في المنخفضات وفي مستوى الأرض في الأماكن التي هي أعلى من ذلك.

وكثرت الأغنام في هذا الريف، أما بيوت الفلاحين فإنها من الطين إلا أن سقوفها ممالة من جهة واحدة حتى تنزلق عنها مياه الأمطار مما ذكرني بالبيوت الريفية في شمال الصين، وقد ذكرت ذلك في كتاب: (داخل أسوار الصين) الذي طبع في مجلدين.

وقفة في سيدي سليمان:

وقف القطار في قرية (سيدي سليمان)، وينبغي أن يلاحظ ما سبق أن ذكرناه من كثرة ورود (سيدي) في هذه الأماكن وأن المراد بسيدي الشيخ الصالح أو الولي، مما يجعلني أقارنها بكلمة (سان) الشائعة في البلدان الأوروبية اللاتينية مثل إسبانيا والبرتغال مع الفارق من حيث أن النصارى يعتقدون القداسة في بعض الذين يقولون إنهم عباد أو زهاد أو صالحون من بني دينهم فسان أو سانت تعني قديس، أما عند المسلمين في هذه البلاد فإها تعني ما ذكرته.

وفي محطة (سيدي سليمان) هذه رايت أناساً جالسين على الأرض في انتظار القطار أو لغير ذلك من الأغراض، وذلك لكون المقاعد في المحطة مليئة بالجالسين.

ووقفنا بعد (سيدي سليمان) ببلدة أكثر ما فيها ظهوراً صومعة المسجد الجميلة وهي مربعة ذات رأس دقيق مطلي بطلاء أخضر.

وفي هذه البلدة نهر طيني الضفاف، ولم يتلبث القطار فيها طويلاً وإنما غادرها إلى ريف خصب فيه حقول وأشجار من أشجارالفاكهة.

..... ومررنا بغابات من الأشجار وبعض الأشجار مقطوعة إلاَّ أنهم أبقوا على جذوعها سليمة لم يستأصلوها والظاهر أنهم فعلوا ذلك من أجل الحاجة إليها في صناعة الورق وكلها لا تسقى إلا من السماء ورطوبة الأرض.

بلدة الخصيبة:

وقف القطار في بلدة اسمها الخصيبة على لفظ النسبة إلى الخصيب.

صعد رجل في محطتها إلى الدرجة الأولى فغضب منه ضابط بلباس رسمي أظنه مسئولاً عن القطار وأنزله من هذه الدرجة بعنف لأنها ليست مكانه، وربما كان عرفه من قبل وأنه قد تكرر منه ذلك.

وبعدها عادت الغابة التي تغذي مصنع الورق من دون شك.

سيدي يحيى:

تجاوزنا مصنع الورق ثم وصلنا بعد قليل إلى بلدة (سيدي يحيى) وبعدها وصلنا منطقة ذات ربيع أقل من التي قبلها ربما كان ذلك لقلة المطر الذي كان نزل عليها أو لكون طبيعة أرضها كذلك وقد ذكرني منظرها بالربيع في منطقة القصيم.

سيدي آشو:

وقفنا في هذه المنطقة الأقل ربيعاً في محطة تسمى (سيدي آشو) ورأيت فيها مما استرعى انتباهي فتى راكباً على حمار عاري الظهر من أية وقاية.

وترى التربة فيها على البعد تشبه الرمل الأحمر.

ومررنا بمنطقة قد نما فيها البرشومي المعروف بالتين الشوكي في مصر وقد اثقلته الثمار وزادت أزهار الربيع فيها، وزادت الصورة الجميلة فيها جمالاً طيور بيض من الغرانيق، ولأنها بدت كما لو كانت لا تذار بمعنى أنها لا تجد من يحاول صيدها فينفرها.

القنيطرة:

وصلنا إلى مدينة القنيطرة في الثانية عشرة إلا الربع، وقد ظل القطار لبعض الوقت يسير في المدينة حتى وقف في محطتها وهي جيدة متسعة.

ورغم أهمية المدينة فإن القطار لم يمض كثير وقت في محطتها فغادرها وسط جو خصب وقطع من الغابات.

ومن المناظر فيها فلاحات على ظهورهن حزم الحطب.

وبعدها مررنا بمنطقة ذات أشجار ضخمة تشبه أشجار التين وهي تعيش من دون أن تسقى مثل أكثر الأشجار غيرها هنا.

وبعدها مررنا بقرية أول اسمها (سيدي) ولم أتبين ما بعدها، والقطار كهربائي نظيف وليس كالقطارات في الهند والصين التي تسير على بخار الفحم فتلوث الجو، وتضر بالصحة.

سلا تابركت:

قبل الوصول إلى مدينة (سلا) المعروفة بل المشهورة التي تقع إلى الشمال من مدينة الرباط لا يفصل بينهما إلا نهر ابي الرقراق وقف القطار في محطة كتب عليها (سلا تابركت) ولم أعرف معناه إلا أن المكان أشبه بالضاحية القديمة من مدينة كبيرة، إذْ فيها أبنية (عمارات) كبيرة، وهي نفسها متسعة إلا أن أبنيتها حديثة ليس لها طعم الأبنية القديمة أو ذات الطابع الإسلامي المغربي العريق.

والمحطة هنا واسعة ذات عدة قضبان حديدية ممتدة بعضها خالٍ، وبعضها فيه قطارات واقفة.

مدينة سلا:

وقف القطار في مدينة (سلا) ولكنه لم يستمر في محطتها طويلاً رغم أهمية المدينة، ثم غادرها ماراً بجسر فوق نهر (ابي الرقراق) الذي يفصل بينها وبين مدينة الرباط.

العودة إلى الرباط:

في الثانية عشرة والثلث ظهراً كان القطار يقف في محطة الرباط الجميلة ووجدت حمالاً كان حمل حقيبتي عند النزول في مكاتب المحطة إلى القطار الذي ينزل إليه بدرج فأسرع يحمل حقيبتي حتى أوصلها إلى الفندق المجاور للمحطة، وكنت أودعت أهل الفندق بقية أمتعتي وكتباً اشتريتها من المغرب.

العودة إلى بلادي:

بقيت يومين في الرباط في راحة تامة واشتريت كتباً من طباعة المغرب فأكثرت ومن ذلك مطبوعات الهيئة العربية للتعريب ومنها مجلتها المفيدة العميقة (اللسان العربي) حيث اشتريت مجموعتها لنحو ١٨ سنة، وحصلت على كتب أخرى هدية من إدارة المجلة وجميع ما طبعته الهيئة من المعاجم المتفرقة بالعربية.

وعندما ذهبت للخطوط المغربية أسال عن الحجز إلى جدة علمت أن لديهم طائرة تقوم من الدار البيضاء إلى الرياض دون توقف فسرني ذلك ودفعت لهم الفرق ما بين تذكرتي التي هي إلى جدة وبين التذكرة للرياض.

وفي صباح اليوم المحدد للطيران نزلت من فندقي المجاور لمحطة الرباط للقطارات فقطعت تذكرة إلى مطار الدار البيضاء واستمتعت بالنظر إلى الطريق ما بين الرباط ومطار الدار البيضاء وغيرت القطار في محطة الدار البيضاء إلى قطار خاص بمطارها لا يذهب إلا إليه.

وكان في المحطة حمالون مهمتهم نقل أمتعة الركاب بين القطارين، ووقف القطار تحت أبنية من أبنية المطار فأسرع فتى معه عربة يحمل أمتعتي ويدفعها أمامي حتى وصلنا إلى مكاتب الخطوط المغربية وكانت تذكرتي في الدرجة الأولى ولي عليها ٤٠ كيلو قراماً حسبما كتبته الخطوط السعودية على التذكرة إلا أن الموظف قال: إن لديك أمتعة زائدة عن الوزن هي ٨٤ كيلوقراماً.

فقلت له صادقاً: إنها كتب اشتريتها من المغرب فإذا كان يمكن نقلها وإلا فإنني مستعد لدفع الأجرة، فحمل جوازي وهو (دبلوماسي) مكتوب فيه اسم وظيفتي (الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي) وقال: سوف أتكلم مع المدير.

ثم جاءني وقال: لقد سامحك المدير عن ٥٠ كيلو ويمكنك دفع أجرة ٣٤ فقط! فشكرت له ذلك، وبينما كنا نتحدث مر بهم رجل كبير نهضوا كلهم للسلام عليه والاحتفاء به وكان جوازي لا يزال بيد الموظف فسلم وأراه جوازي فأخبره الموظف بالوزن الزائد معي، فقال: لا تأخذوا منه شيئاً واحملوها له مجاناً.

وهكذا سافرت في طيران مباشر استغرق ٧ ساعات ونصفاً من الدار البيضاء إلى الرياض.

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

١. في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين- طبع بيروت، دار الثقافة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

٢. رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا- الرياض، دار العلوم، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٣. مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين- الرياض، النادي الأدبي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٤. جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي- الرياض، المطابع الأهلية للأوفست، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٥. رحلة إلى سيلان- الرياض، جمعية الثقافة والفنون، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

٦. صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين- نشرته دار العلوم في الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٧. مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين- نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٨. إطلالة على نهاية العالم الجنوبي- مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٩. زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية- طبع بمطابع الرياض الأهلية للأوفست، عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

١٠. شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين- الرياض، المطابع الأهلية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

١١. في نيبال بلاد الجبال- رحلة وحديث في شؤون المسلمين- الرياض، مطابع الفرزدق، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٢. رحلات في أمريكا الوسطى- المطابع الأهلية للأوفست في الرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٣. إلى أقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي- الرياض، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

١٤. على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل- نشره النادي الأدبي في أبها، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٥. على قمم جبال الأنديز- الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
١٦. في غرب البرازيل- الرياض، مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
١٧. في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر- طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
١٨. بقية الحديث عن إفريقية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
١٩. جولة في جزائر البحر الكاريبي- مطابع الرياض الأهلية للأوفست، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٢٠. جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ، مطابع الفرزدق، الرياض، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
٢١. داخل أسوار الصين (مجلدان)-مطابع الفرزدق التجارية،الرياض،١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٢٢. بلاد الداغستان- طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ.
٢٣. الرحلة الروسية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.
٢٤. مع المسلمين البولنديين- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٢٥. جمهورية أذربيجان- طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٢٦. في أعماق الصين الشعبية- نشرته مجلة المنهل.
٢٧. بين الأرغواي والبارغواي- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٢٨. بورما الخبر والعيان- طبع ببيروت عام ١٤١٢هـ.
٢٩. مقال عن بلاد البنغال- طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
٣٠. ذكريات من يوغسلافيا- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
٣١. كنت في بلغاريا- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
٣٢. في جنوب الصين- طبعته رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.
٣٣. كنت في ألبانيا- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.
٣٤. ذكرياتي في إفريقية- محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.
٣٥. أيام في النيجر- طبع ببيروت عام ١٤١٤هـ.
٣٦. على أرض القهوة البرازيلية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٥هـ.
٣٧. نظرة في شرق أوربا وحالة المسلمين بعد الشيوعية- طبع ببيروت عام ١٤١٤هـ.

٣٨. بين غينيا بيساو وغينيا كوناكري- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

٣٩. من أنقولا إلى الرأس الأخضر- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

٤٠. سياحة في كشمير- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٤١. يوميات آسيا الوسطى- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

٤٢. نظرة في وسط إفريقية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٤٣. بلاد القريم- نشرته دار القبلة في جدة.

٤٤. قصة سفر في نيجريا (مجلدان)- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.

٤٥. حديث قازاقستان- نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

٤٦. المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية- نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها عام ١٤١٦هـ.

٤٧. في جنوب الهند (من سلسلة الرحلات الهندية) طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٧هـ.

٤٨. رحلات في أمريكا الجنوبية: غينيا وسورينام، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

٤٩. إطلالة على أستراليا- طبع في مطابع التقنية للأوفست- الرياض عام ١٤١٧هـ.

٥٠. أيام في فيتنام- نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

٥١. في غرب الهند (من سلسلة الرحلات الهندية) نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة، عام ١٤١٧هـ.

٥٢. إطلالة على موريتانيا – نشـرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

٥٣. حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية- نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٥٤. زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٥٥. سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور- مطابع النرجس التجارية، الرياض، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٥٦. راجستان: بلاد الملوك (من سلسلة الرحلات الهندية) مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٥٧. في شرق الهند (من سلسلة الرحلات الهندية) طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام ١٤١٩هـ.

٥٨. العودة إلى الصين (من سلسلة الرحلات الصينية) طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

٥٩. في شرق البرازيل، من سلسلة الرحلات البرازيلية- طبع في مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

٦٠. هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز) مطابع التقنية، الرياض، ١٤١٩هـ.

٦١. من بلاد القرتشاي إلى بلاد القبرداي (من سلسلة الرحلات القوقازية) طبع في مطابع التقنية للأوفست، الرياض، ١٤٢٠هـ.

٦٢. بلاد التتار والبلغار (من سلسلة رحلات الشمال) نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٦٣. بلاد الشركس: الإديغي- طبع مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٦٤. مواطن إسلامية ضائعة- مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٦٥. تائه في تاهيتي- طبعته مطابع التقنية، الرياض،١٤٢٠ هـ.

٦٦. نظرة إلى الفلبين بين زيارتين: رسمية وخاصة، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٠هـ.

٦٧. ذكريات من الاتحاد السوفيتي، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٠هـ.

٦٨. نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض أو رحلة إلى أبعد مكان: جولات في أقصى جزر المحيط الهادئ الجنوبي، طبع في مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٦٩. إقليما سمارا وأستراخان (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا)، نشرته دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٧٠. في إندونيسيا أكبر بلاد المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٧١. قرينادا وسانتالوسيا ودومنيكا (من سلسلة الرحلات الكاريبية) مطبعة العلا، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٧٢. مشاهدات في تايلند، مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢١هـ.

٧٣. مع العمل الإسلامي في القارة الأسترالية، جولة وحديث في شؤون الإسلام، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢١هـ.

٧٤. فطاني أو جنوب تايلند، مطابع المسموعة، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٧٥. المستفاد من السفر إلى شاد، مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٧٦. في جنوب البرازيل (من سلسلة الرحلات البرازيلية) مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٧٧. شمال شرق الهند، رحلة في ولايتي بيهار وإترابراديش وحديث عن المسلمين، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٧٨. بلغاريا ومقدونيا (من سلسلة الرحلات في بلاد البلقان) طبع في مطابع العلا، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٧٩. بلاد البلطيق، طبع في مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٨٠. بيليز والسلفادور (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز) طبع في مطابع العلا، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٨١. (العودة إلى ما وراء النهر) جولة في آسيا الوسطى، وحديث عن شؤون المسلمين، طبع في مطابع المسموعة، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٨٢. (على سقف العالم) رحلة في التبت، وحديث في شؤون المسلمين، نشره نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤٢٢هـ.

٨٣. الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، أو بقية البقية من حديث إفريقية، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٨٤. بلاد العربية الضائعة (جورجيا) طبع في مطابع العلا، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٨٥. الاعتبار في السفر إلى ماليبار (من سلسلة الرحلات الهندية)، نشره النادي الأدبي الثقافي في مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٨٦. ذكريات من خلف الستار العقيدي، رحلة في شرق أوروبا وأحاديث في أحوال المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض،١٤٢٢هـ.

٨٧. بالي، جزيرة الأحلام، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٨٨. غايتي من السفر إلى هايتي، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٨٩. إلى جنوب الشمال: بلاد السويد، طبع في مطبعة العلا، الرياض، ١٤٢٣هـ.

٩٠. وراء المشرقين رحلة حول العالم وحديث في أحوال المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٩١. إلمامة بجنوب الفلبين لحضور الاحتفال بافتتاح المباحثات السلمية بين الحكومة الفلبينية وجبهة تحرير مورو الإسلامية، ومشاهدات أخرى، مطابع النرجس عام ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م.

٩٢. رحلة هونغ كونغ وما كاو، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٩٣. إلى أقصى الجنوب الإفريقي، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٩٤. شمال سيبريا (من سلسلة الرحلات السيبرية) مطابع النرجس، الرياض، عام ١٤٢٤هـ.

٩٥. فوق سقف الصين: رحلة في الشمال الغربي من الصين، وحديث عن المسلمين، طبعته مطبعة العلا في الرياض، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٩٦. إقليم أورنبورغ (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا) طبع في مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٩٧. إلى إريتريا بعد ٣٦ سنة، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٤هـ.

٩٨. الشرق الشمالي من البرازيل: رحلة في ولايات: برنانبوكو وريوقراندي دي نورتي وبارايبا (من سلسلة الرحلات البرازيلية) طبع في مطابع العلا في الرياض.

٩٩. من غينيا الاستوائية إلى ساو تومي: رحلات في القارة الإفريقية، مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

١٠٠. من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء (من سلسلة الرحلات في القارة الأوروبية) مطابع العلا في الرياض، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

١٠١. إلى شمال الشمال: بلاد النرويج وفنلندا (من سلسلة الرحلات في القارة الأوروبية)، مطابع العلا في الرياض، ١٤٢٤هـ.

١٠٢. في غرب أستراليا (من سلسلة الرحلات الأسترالية) طبع في مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٩هـ.

١٠٣. (نظرات في شمال الهند) مجلدان، طبع في مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

١٠٤. جولات فنزويلية وحديث عن المسلمين في أحد أركان القارة (من سلسلة رحلات في أمريكا الجنوبية)، مطبعة النرجس في الرياض عام ١٤٢٧هـ.

١٠٥. الحل والرحيل في بلاد البرازيل (ثلاثة مجلدات من سلسلة الرحلات البرازيلية)، (تحت الطبع).

١٠٦. في وسط الهند، طبعته مطبعة النرجس عام ١٤٢٦هـ.

١٠٧. قوادي لوب وانتقوا وسان مارتن (من سلسلة الرحلات في البحر الكاريبي) طبع مطابع النرجس عام ١٤٢٩هـ.

١٠٨. في شمال شرق آسيا، رحلة في سيبريا ومنغوليا، طبع مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٦هـ.

١٠٩. القلم وما أوتي، في جيبوتي، مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٥هـ.

١١٠. خلال أوكرانيا بحثاً عن المسلمين، (من سلسلة الرحلات في بلاد الشمال)، (تحت الطبع).

١١١. مقال في زيارة منطقة الأورال، (من سلسلة الرحلات في وسط روسيا)، طبع مكتبة الطرفين في الطائف عام ١٤٣٠هـ.

١١٢. بورتوريكو وجمهورية الدومنيكان، (من سلسلة الرحلات الكاريبية)، طبع في مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢٩هـ.

١١٣. جمهورية القبائل الروسية (رحلات في جنوب روسيا)، نشرته مكتبة الرشد بالرياض.

١١٤. في غرب سيبيريا، مشاهدات وأحاديث في شئون المسلمين (الرحلات السيبيرية)، نشرته مكتبة الرشد بالرياض.

١١٥. شمال أستراليا، رحلة وحديث في أحوال المسلمين (الرحلات الأسترالية)- (تحت الطبع).

١١٦. إلمام بالمحيط الهادي من أستراليا إلى جزيرة قوام (الرحلات الأسترالية)، طبعته مطبعة النرجس في الرياض، عام ١٤٣٢هـ.

١١٧. إلى الشرق الأقصى الروسي (الرحلات الروسية)، طبع في مطبعة النرجس في الرياض.

١١٨. في أقصى شرق الهند (الرحلات الهندية) طبعته مطبعة النرجس عام ١٤٣٢هـ.

١١٩. جنوب أستراليا (الرحلات الأسترالية)، طبعته مطبعة النرجس في الرياض عام ١٤٣٢هـ.

١٢٠. رحلة أخرى إلى الحبشة بعد أربعين عاماً، مطبعة النرجس في الرياض، عام ١٤٣١هـ.

١٢١. قول أوفى، في كوسوفا، نشرته دار الثلوثية في الرياض، عام ١٤٣١هـ.

١٢٢. رحلة إلى المدينة المنورة قبل ستين سنة: نشرته دار الثلوثية في الرياض عام ١٣٣١هـ.

١٢٣. في أعماق الصين الشعبية: رحلة في مقاطعة منقوليا الداخلية وحديث عن الإسلام والمسلمين: طبعته مطبعة النرجس عام ١٤٣١هـ.

١٢٤. العودة إلى غرب إفريقية، طبعته مطبعة النرجس عام ١٤٣٢هـ.

١٢٥. غينيا الجديدة آخر الغينيات زيارة (تحت الطبع).

١٢٦. من كوبنهاجن إلى كييف مروراً بباريس، (تحت الطبع).

١٢٧. العودة إلى المغرب الأقصى (بين الصحراء والأرض الخضراء (وهو هذا الكتاب).

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

١. معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات)-نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأوفست، الرياض، ١٣٩٩هـ ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

٢. أخبار أبي العيناء اليمامي- طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

٣. الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبدالعزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

٤. كتاب الثقلاء- نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

٥. نفحات من السكينة القرآنية- طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس- نشرته دار العلوم، الرياض، ١٤٠٣هـ.

٦. مأثورات شعبية- نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

٧. سوانح أدبية- طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤٠٥هـ.

٨. صور ثقيلة- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤٠٥هـ.

٩. العالم الإسلامي والرابطة- نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها في مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.

١٠. نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء، مطابع التقنية، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١١. المقامات الصحراوية- مطابع التقنية، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٢. مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين، وبخاصة الأقليات المسلمة- بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية- نشرته لجنة الاحتفال بمرور مائة عام على التأسيس، وطبعته في مطابع الناشر العربي، الرياض، ١٤١٩هـ.

١٣. كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، أحد بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، نشرته جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ.

١٤. المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة)- نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطابعها في مكة المكرمة، ١٤١٩هـ.

١٥. مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبدالعزيز، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية).

١٦. رابطة العالم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين- نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها بمكة المكرمة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٧. الدعاة إلى الله: شرف مهمتهم، وطرق دعمهم، نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ.

١٨. واجب المسلم في بلاد الأقليات، نشرته رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

١٩. (العالم الإسلامي: واقع وتوقعات) نشرته مجلة (العربية) التي تصدر في الرياض مصاحباً لعدد ذي الحجة ١٤٢٠هـ منها.

٢٠. الدعوة الإسلامية وإعداد الدعاة، طبعته مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٢١. (حِكَمُ العوام)، طبعت في مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٢٢. في لغتنا الدارجة: كلمات قضت، (كتاب لغوي) طبعته بنفقتها ونشرته ضمن منشوراتها دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، في مجلدين كبيرين.

٢٣. حكايات تحكى (قصص)، نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة، عام ١٤٢١هـ.

٢٤. أثر الأقليات المسلمة في الدعوة الإسلامية، نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٢٥. الكناية والمجاز في اللغة العامية، نشرته مجلة الدرعية التي تصدر في الرياض، ١٤٢٣هـ.

٢٦. أماكن قديمة العمارة في القصيم، نشرته مكتبة العبودي في بريدة لصاحبها صالح بن عبدالله العبودي.

٢٧. معجم الألفاظ الدخيلة في لغتنا الدارجة، نشرته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض في مجلدين- عام ١٤٢٥هـ.

٢٨. المقامات البلدانية، نشره النادي الأدبي في الرياض، عام ١٤٢٦هـ.

٢٩. الأصول الفصيحة للألفاظ الدارجة، أو ما فعلته القرون بالعربية في مهدها (ثلاثة عشر مجلداً) نشرته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض، عام ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٣٠. الحوار في الإسلام، نشرته دار الطرفين للنشر والتوزيع في الطائف، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٣١. دور الأقليات الإسلامية في الدعوة إلى الله، نشرته دار الطرفين للنشر والتوزيع في الطائف، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٣٢. الأقليات المسلمة: الواقع والمأمول، نشرته دار الطرفين للنشر والتوزيع في الطائف، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٣٣. العالم الإسلامي: الواقع والمعاناة، نشرته دار الطرفين للنشر والتوزيع في الطائف، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٣٤. هذا ما أستوحيته من الناس، كتاب أدبي طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٩هـ.

٣٥. جهود خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله في مساعدة الإخوة المسلمين وبخاصة في بلاد الأقليات المسلمة، مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٩هـ.

٣٦. العلاقات بين المملكة العربية السعودية وتركيا، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٩هـ

٣٧. أخبار الملا ابن سيف نشرته دار الثلوثية في الرياض، عام ١٤هـ.

٣٨. أخبار قني نشرته دار الثلوثية في الرياض، عام ١٤هـ.

٣٩. أخبار مطوع اللسيب نشرته دار الثلوثية في الرياض، عام ١٤هـ.

٤٠. مشاهد من بريدة قبل ٧٥ سنة، نشرته دار الثلوثية في الرياض.

٤١. المطوع في باريس، نشره النادي الأدبي في الرياض.

٤٢. الأصدقاء الثلاثة (رواية) طبعتها مطبعة النرجس في الرياض، عام ١٤٣٢هـ.

٤٣. معجم النخلة في المأثورات الشعبية، نشرته دار الثلوثية في الرياض، عام ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

٤٤. معجم المطر والسحاب، نشرته دار الثلوثية في الرياض في عام ١٤٣٢هـ.

٤٥. معجم الأنواء والفصول، نشرته دار الثلوثية في الرياض في عام ١٤٣٢هـ.

٤٦. معجم الديانة والتدين، نشرته دار الثلوثية في الرياض في عام ١٤٣٢هـ.

٤٧. معجم ألفاظ الصيد والقنص، نشرته دار الثلوثية في الرياض في عام ١٤٣٢هـ،

٤٨. معجم الحيوان عند العامة، نشرته مكتبة الملك فهد الوطنية في الرياض عام ١٤٣١هـ في مجلدين.

٤٩. الشيخ العلامة عبدالله بن محمد بن حميد كما عرفته، نشرته دار الثلوثية في الرياض في مجلدين، عام ١٤٣٢هـ.

٥٠. معجم أسر بريدة في٢٣ مجلداً، نشرته دار الثلوثية في الرياض عام ١٤٣٠هـ.

٥١. المستدين: قصة طبعت في مطبعة النرجس عام ١٤٣١هـ.

٥٢. القضاء في المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (تحت الطبع).

٥٣. أهمية الوثائق المحلية في تاريخ الأفراد والأسر.

٥٤. الرحلات العالمية وآثارها في الدعوة إلى الله (تحت الطبع).

٥٥. أفكار حول معالجة الزحام الشديد في المسجد الحرام في المواسم.

https://dawa.center

المستودع الدعوي الرقمي
Osoul Center For Studies

SR 15

9 786039 075646